

د. أحمد البراء الأميري







الطبعة الأولى
١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م

دار نور المكتبات

جدة - حي السلامة - بجوار جامع الشعيبي - هاتف وفاكس : ٦٨٣٨٠٥١ جدة - السعودية

مؤسسة الريان
للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - هاتف وفاكس (الإدارة) : ٦٥٥٣٨٣
هاتف : (المكتبة) ٧٠٥٩٢٠ - ص . ب : ١٤/٥١٣٦
رمز بريدي : ١١٠٥٣٢٠٣٠ - بريد الكتروني : ALRAYAN@cyberia.net.lb


كيف ننتفع بالقرآن الكريم
خطوة نحو تدبر أمثل



مقدمة

الحمدُ لله ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾[1]. والصَّلاةُ والسَّلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه.

لو قيل لأحدنا: **إنَّ رسالةً خاصَّة جاءتك من الملك**، ووزيرُه بالباب ينتظر لِيُسَلِّمَكَ إيَّاها، فكيف يكون شعوره؟ ألا يُهرع إلى الباب لاستلامها، ثم يسرع بفضِّها لمعرفة ما جاء فيها؟

أليس القرآن الكريم رسالةً من الله سبحانه، الملكِ القدُّوس السلام، موجَّهةً إلى النَّاس كافَّة بصورةٍ

(١) سورة الفرقان، الآية: ١.

عامة، وإلى الذين آمنوا منهم بصورة خاصة، وفيها مـن الإرشاد والتوجيـه، والأوامر والنواهي ما تتوقّف عليه سعادة المرء المؤقّتةُ في الدنيا، والمستمرةُ في الآخرة؟ فلماذا ـ إذن ـ نتهاونُ في قراءته، وتدبُّره، والائتمار بأوامره، واجتناب نواهيه؟

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾[1].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾[2].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ ﴾[3].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ ﴾[4].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٣.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٦٤.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٦٧.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٧٨.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَـٰسِرِينَ ﴾[1].

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴾[2].

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾[3].

وغيرها كثير.

«وإذا نظرنا إلى واقع المسلمين اليوم مع القرآن، نجد أنه واقع مؤرق، وعلاقتهم به يحكمها الهَجْر والعقوق إلى درجة نخشى معها أن نقول: إنَّ علل الأمم السابقة التي حذَّر منها القرآن، ونبَّه إليها الرسول ﷺ، تسرَّبت إلى العقل المسلم. قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ ﴾[4]،

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤٩.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ١٥.
(٣) سورة التوبة، الآية: ٢٨.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٧٨.

أي: لا يعلمون الكتاب إلا تلاوةً وترتيلاً.

«نقل ابن تيمية رحمه الله عن ابن عباس رضي الله عنهما، وعن قتادة رحمه الله، في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ﴾، **أي: غير عارفين بمعاني الكتاب، يعلمونها حفظاً وقراءة بلا فهم، لا يدرون ما فيها... وقوله: ﴿إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾، أي تلاوة، لا يعلمون فقه الكتاب، إنما يقتصرون على ما يُتلى عليهم.**

«والأُمِّيَّة العقليَّة هذه تسود الأمة في حال التقليد، والغياب الحضاري، والعجز عن تدبُّر القرآن، والتعامل مع الأحداث، واتِّخاذ المواقف، واكتشاف سنن الله في الأنفس والآفاق، وحُسْن تسخيرها، ومعرفة كيفية التعامل معها، والنفاذ من منطوق النصّ وظاهره إلى مقْصده ومَرْماه، والتدخُّل حين نعلم السُّنة، وأنها تتكرر ولا تتبدَّل، فنستطيع توجيهها إلى حيث نريد ونفيد، فنصل إلى مرحلة مغالبة القدر بقدرٍ أحبّ إلى الله، أو نفرّ من قدر الله إلى قدر الله، كما قال عمر رضي الله تعالى عنه. يقول ابن القيم

رحمه الله في كتابه: «مدارج السالكين»: «ليس الرجل الذي يستسلم للقدر، بل الرجل هو الذي يحارب القدر بقدرٍ أحبَّ إلى الله... إنَّها الأميَّة العقليَّة التي نعيشها اليوم مع القرآن، والتي تعني ذهاب العلم على الرغم من تقدم فنون الطباعة، ووسائل النشر، وتقنيات التسجيل..»[1].

يقول الشيخ محمد الغزالي[2] رحمه الله: «**حال المسلمين اليوم مع القرآن الكريم تستدعي الدراسة المتعمِّقة**، ذلك أنَّ المسلمين ـ بعد القرون الأولى ـ انصرف اهتمامهم بكتابهم إلى ناحيةِ التلاوة، وضَبْطِ مخارج الحروف، وإتقان الغُنن والمُدود، وما إلى ذلك ممَّا يتصل بلفظ القرآن، والحفاظ على تواتره كما جاءنا... لكنهم ـ بالنسبة لتعاملهم مع كتابهم ـ صنعوا شيئاً ربما لم تصنعه الأمم الأخرى؛ فإن كلمة

---

(١) عمر عبيد حسنة، مقدمته لكتاب: كيف نتعامل مع القرآن، ١٣ وما بعدها، بتصرف.
(٢) المرجع السابق: ٢٧ وما بعدها، بتصرف.

(قرأتُ) عندما يسمعها الإنسان العادي أو يقولها، تعني: أنّ رسالةً جاءته، أو كتاباً وقع بين يديه، فنظر فيه، وفهم المقصود منه.. **فمن حيث الدلالة لا أجد فكاكاً بين الفهم والقراءة، أو بين السّماع والوعي.**

«أما الأمَّة الإسلاميَّة فلا أدري بأية طريقةٍ فَصَلت بين التلاوة والتدبُّر، فأصبح المسلم اليوم يقرأ لمجرَّد البركة ـ كما يقولون ـ **وكأنَّ ترديد الألفاظ دون حِسٍّ بمعانيها، ووعي مغازيها، يُفيد، أو هو المقصود.**

«وعندما أحاول أن أتبيَّن الموقف في هذا التصرُّف أجد أنه موقف مرفوض من الناحية الشرعية، ذلك أن قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[1]، يعني الوعي، والإدراك، والتذكُّر، والتدبُّر.. فأين التدبّر؟ وأين التذكر مع تلك التلاوة السطحية التي ليس فيها إحساس بالمعنى، أو إدراك للمقصد، أو غوصٍ فيما وراء

(١) سورة ص، الآية: ٢٩.

المعنى القريب، لاستنتاج ما هو مطلوب لأمتنا من مقوماتٍ نفسية واجتماعية، تستعيد بها الدور المفقود في الشهادة على الإنسانية وقيادتها إلى الخير. . .

«لذلك وجدنا الأمة الإسلامية عندما هَجَرَت كتابها ـ أو على الأقل أخذت تقرؤُه على أنه تراتيل دينية ـ فإنَّها فقدت صلتها بالكون، وكانت النتيجة أنَّ الذين درسوا الكون خدموا به الكفر، واستطاعوا أن يُسَخِّروه لأنفسهم، ومبادئهم وإلحادهم، وتثليثهم. أما نحن، ومع أنَّ كتابنا كتابُ الفكر، وكتاب تجاوب مع الكون، فما الذي صرفنا عن هذا كلّه؟ إنَّ وعي المعاني وإدراك الأحكام، والتحقُّق بالعاطفة المناسبة من خلال تشرُّب معاني القرآن، كل ذلك قد اختفى من نفوسنا. .

«القرآنُ كتابٌ يصنعُ النفوس، ويصنعُ الأمم، ويبني الحضارة. . هذه قدرتُه. . هذه طاقتُه. . فأما أن يُفتح المصباح فلا يرى أحدٌ النور لأنَّ أبصاره

مغلقة، فالعيب عيب الأبصار التي أَبَت أن تنتفع بالنور، والله تعالى يقول: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ۝١٦ ﴾[(١)]».

ولا شك أنَّ التدبُّر هو المرحلة التي تسبق العمل، إذْ ما فائدة العلم بلا عمل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣ ﴾[(٢)]؟!

---

(١) سورة المائدة، الآيتان: ١٥، ١٦.
(٢) سورة الصف، الآيتان: ٢، ٣.

تمهيد

وبعد:

ففيما يلي بعض ما وقع عليه اختياري في أثناء قراءتي حول هذا الموضوع الخطير الذي شغلني ولا يزال: كيف ننتفع بالقرآن الكريم؟ لأنني أشعر أنَّ انتفاعي بالقرآن الكريم قليل، وصلتي به ضعيفة، وأنَّ شكواي هذه يشاركني فيها كل مَنْ فاتحتُه في هذا الموضوع وحدثته عنه.

وقد رأيتُ أن أُمَهِّد للموضوع بالتعرُّض لنقطتين:

الأولى: بيان طريقة القرآن الكريم في معالجة موضوعاته، وعرض قضاياه؛ فهي طريقة متفرِّدة لا سابق لها، ولا لاحق، وقد يعجب لها من يقرأ القرآن للمرة الأولى، ولا يفطن لمغزاها من تعدَّدت تلاوته للكتاب المجيد.

الثانية: نظرة سريعة إلى منحى التفسير العلمي لبعض آيات الذكر الحكيم، وهو اتِّجاهٌ في التفسير له في عصرنا الحاضر مُؤَيِّدوه ومعارضوه.

طريقة القرآن في العرض:

يقول أبو الأعلى المودودي[1] رحمه الله: «إن عامة الكتب التي ندرسها نجد أنَّ جميع ما فيها من معلومات وأفكار ودلائل يدور حول موضوع بعينه، بأسلوب تأليفي، وبصورة منسجمة. ولأجل ذلك فالدارس الذي ليس له عهد بالقرآن، إذا أراد أن يدرسه أوَّل مرة في حياته، فإنَّما يتناوله ظاناً أنَّه على غِرار الكتب التي تعوَّد قراءتها، قد حدّد موضوعه المنشود، وقسم إلى أبواب وفصول. ويظن أن هذا الكتاب قد تناول كل شعبة من شعب الحياة الإنسانية - على وجه الاستقلال - بالبحث والعرض، ليَسْرد ما يتعلَّق بها من أحكام وتعاليم بترتيب متسلسل. إلا أنَّ

(١) مبادىء أساسية لفهم القرآن: ٩ وما بعدها، بتصرّف.

الدارس إذا بدأ يتصفَّح هذا الكتاب يُفاجأ بخلاف ما كان يتوقعه، إذ يرى: مسائل العقيدة، والتعاليم الخلقية، والترغيب والترهيب، والحجج والشواهد، والقصص التاريخية، والإشارة إلى آيات الله في الكون. . . كل ذلك جنباً إلى جنب يتكرر بيانه بين حين وحين، ويُعرض بوجوه متباينة وأساليب منوَّعة. كما أنه بينما يطْرق موضوعاً فإذا به يولي وجهه شطر موضوع آخر، ويبدأ في عرض موضوع ثم يتخلَّله موضوع آخر بغتة، كما يتبدَّل المخاطَب والمتكلِّم، وتتجه المحاورة إلى جهاتٍ مختلفة مرة بعد أخرى.

«أما تقسيم المواضيع والمباحث إلى أبواب وفصول فلا أثر له. وإذا نوقش فيه التاريخ لم يناقش بالأسلوب السائد لكتابة التاريخ، وإذا سيقت البحوث المتَّصلة بالغيب لم تُسَق في مصطلحات تختص ببحوث الفلسفة والمنطق، وإذا ذكر الإنسان وما في العالم من موجودات لم يذكر على منهج العلوم الطبيعية، وإذا تطرَّق الموضوع إلى شئون

المدنية، أو السياسة، أو الاقتصاد، أو الاجتماع، لم يسلك مسالك تلك العلوم في البحث، وهكذا في كل ما عالج من قضايا، فهو يختار لها الأسلوب الخاص به الذي يغاير سائر ما كُتب ودوِّن من قبل.

«لذلك إذا بدأ المرء بدراسة القرآن كعامة الكتب الأخرى فلن يستطيع التعرُّف على موضوعاته، وستغيب عنه المعاني الكامنة في ألفاظه في معظم المواضع. ونتيجةً لذلك فإنَّه يُحرَم من التوصُّل إلى روح كلام الله، ورغم استفادته قليلاً أو كثيراً من لآلىء الحكم القرآنية المشرقة المتناثرة فإنه سَيَضْطر إلى الاكتفاء بها، وإلى اقتطاف طاقة من زهور متناثرة بدلاً من أن يلمّ بعلم الكتاب، ويطول فيه باعه.

«لا بد لمن أراد أن يتدبَّر القرآن أن يسأل نفسه: أي نوع من الكتب هو؟ وكيف نزل؟ وما سرُّ ترتيبه؟ وما الموضوعات التي يدورُ حولها؟ وما الغاية التي يتوخاها؟ وأيُّ نمط من الاستدلال والبيان اختاره

للتعبير عمَّا يهدف إليه؟».

ولهذا فإنَّ من المفيد أن يقرأ من يريدُ دراسة القرآن الكريم دراسة جادة كتاباً مختصراً في **علوم القرآن**، وفي المكتبة الإسلامية الحديثة عددٌ لا بأس به من هذه الكتب، تعرض لأهم مباحث علوم القرآن الكريم.

التفسير العلمي للقرآن الكريم:

ومن المناسب في هذا المقام أن أنقل كلام اثنين من المفكرين المسلمين في العصر الحديث، الأول **سيد قطب**، والثاني **عباس محمود العقاد**، رحمهما الله تعالى، فهو يلقي مزيداً من الضوء على هذه النقطة.

يقول سيد قطب[1] في التعليق على قوله تعالى: **﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ**

(١) في ظلال القرآن: ١/ ١٨٠ ـ ١٨٢، بتصرف.

ٱتَّقَىٰۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَاۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1].

«تقول بعض الروايات: إنَّ النبيَّ ﷺ سُئل ذلك السؤال الذي أسلفناه عن الأهِلَّة: ظهورها ونموها وتناقصها.. ما بالها تصنع هذا؟ وتقول بعض الروايات: إنَّهم قالوا: يا رسول الله لِمَ خُلقت الأهلة؟ وقد يكون هذا السؤال في صيغته الأخيرة أقرب إلى طبيعة الجواب. فقال الله لنبيِّه ﷺ:

﴿قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّۗ﴾..

«مواقيت للناس في حِلّهم وإحرامهم، وفي صومهم وفطرهم، وفي نكاحهم وعِدَّتهم، وفي معاملاتهم وتجاراتهم وديونهم.. وفي أمور دينهم وأمور دنياهم على سواء.

«وسواء كان هذا الجواب رداً على السؤال الأول أو على السؤال الثاني، فهو في كلتا الحالتين اتَّجه

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٩.

إلى واقع حياتهم العملي لا إلى مجرد العلم النظري؛ وحدَّثهم عن وظيفة الأهلَّة في واقعهم وفي حياتهم، ولم يحدثهم عن الدورة الفلكية للقمر وكيف تتم، وهي داخلة في مدلول السؤال: ما بال القمر يبدو هلالاً . . . إلخ. كذلك لم يحدِّثهم عن وظيفة القمر في المجموعة الشمسية أو في توازن حركة الأجرام السماوية. وهي داخلة في مضمون السؤال: لماذا خلق الله الأهلَّة؟ **فما هو الإيحاء الذي يُنشئه هذا الاتجاه في الإجابة؟**

«لقد كان القرآن بصدد إنشاء تصوُّر خاص، ونظام خاص، ومجتمع خاص.. كان بصدد إنشاء أمَّةٍ جديدة في الأرض ذات دور خاص في قيادة البشرية، لتُنْشِىء نموذجاً معيَّناً من المجتمعات غير مسبوق، ولتعيش حياة نموذجية خاصة غير مسبوقة؛ ولتقر قواعد الحياة في الأرض؛ وتقود إليها الناس.

«والإجابة العلمية عن هذا السؤال ربما كانت

تمنح السائلين علماً نظرياً في الفلك؛ إذا هم استطاعوا، بما كان لديهم من معلومات قليلة في ذلك الحين، أن يستوعبوا هذا العلم، ولقد كان ذلك مشكوكاً فيه كل الشك، لأنَّ العلم النظري من هذا الطراز في حاجة إلى مقدِّمات طويلة، كانت تُعَدُّ بالقياس إلى عقلية العالم كله في ذلك الزمان معضلات.

«من هنا عَدَلَ عن الإجابة التي لم تتهيَّأ لها البشرية، ولا تفيدها كثيراً في المهمة الأولى التي جاء القرآن من أجلها، وليس مجالها على أية حال هو القرآن. إذ القرآن قد جاء لما هو أكبر من تلك المعلومات الجزئية، ولم يجىء ليكون كتاب علم فلكي أو كيماوي أو طبي.. كما يحاول بعض المتحمِّسين له أن يلتمسوا فيه هذه العلوم، أو كما يحاول بعض الطاعنين فيه أن يتلمسوا مخالفاته لهذه العلوم!

«إن كلتا المحاولتين دليل على سوء الإدراك

لطبيعة هذا الكتاب ووظيفته ومجال عمله. إنَّ مجاله هو النفس الإنسانية والحياة الإنسانية. ووظيفته أن يُنشيء تصوُّراً عاماً للوجود وارتباطه بخالقه، ولوضع الإنسان في هذا الوجود وارتباطه بربه؛ وأن يقيم على أساس هذا التصوُّر نظاماً للحياة يسمح للإنسان أن يستخدم كل طاقاته.. ومن بينها طاقته العقلية، التي تقوم هي ـ بعد تنشئتها على استقامة، وإطلاق المجال لها لتعمل ـ تقوم بالبحث العلمي في الحدود المتاحة للإنسان، وبالتجريب والتطبيق، وتصل إلى ما تصل إليه من نتائج، ليست نهائية ولا مطلقة بطبيعة الحال.

«إنَّ مادة القرآن التي يعمل فيها هي الإنسان ذاته: تصوُّره واعتقاده، ومشاعره ومفهوماته، وسلوكه وأعماله، وروابطه وعلاقاته.. أما العلوم المادية، والإبداع في عالَم المادة بشتّى وسائله وصنوفه، فهي موكولة إلى عقل الإنسان وتجاربه وكشوفه وفروضه ونظرياته، بما أنَّها أساس خلافته في الأرض، وبما

أنَّه مهيَّأ لها بطبيعة تكوينه.. والقرآن يصحِّح له فطرته كي لا تنحرف ولا تفسد، ويصحِّح له النظام الذي يعيش فيه كي يسمح له باستخدام طاقاته الموهوبة له؛ ويزوِّده بالتصوُّر العام لطبيعة الكون وارتباطه بخالقه، وتناسق تكوينه، وطبيعة العلاقة القائمة بين أجزائه. وهو ـ أي الإنسان ـ أحد أجزائه، ثمَّ يَدَع له أن يعمل في إدراك الجزئيات والانتفاع بها في خلافته.. ولا يعطيه تفصيلات لأنَّ معرفة هذه التفصيلات جزء من عمله الذاتي.

«وإني لأعجب لسذاجة المتحمِّسين لهذا القرآن، الذين يحاولون أن يضيفوا إليه ما ليس منه، وأن يحملوا عليه ما لم يَقْصد إليه، وأن يستخرجوا منه جزئيات في علوم الطب والكيمياء والفلك وما إليها.. كأنَّما ليعظموه بهذا ويُكْبِروه!

«... كذلك لا يجوز أن نعلِّق الحقائق النهائية التي يذكرها القرآن أحياناً عن الكون في طريقه لإنشاء

التصوُّر الصحيح لطبيعة الوجود وارتباطه بخالقه، وطبيعة التناسق بين أجزائه.. لا يجوز أن نعلِّق هذه الحقائق النهائية التي يذكرها القرآن، بفروض العقل البشري ونظرياته، ولا حتى بما يسميه حقائق علمية مما ينتهي إليه بطريق التجربة القاطعة في نظره.

«إنَّ الحقائق القرآنية حقائق نهائية قاطعة مُطْلقة. أما ما يصل إليه البحث الإنساني ـ أياً كانت الأدوات المتاحة له ـ فهي حقائق غير نهائية ولا قاطعة؛ وهي مقيَّدة بحدود تجاربه وظروف هذه التجارب وأدواتها.. فمن الخطأ المنهجي ـ بحكم المنهج العلمي الإنساني ذاته ـ أن نعلِّق الحقائق النهائية القرآنية بحقائق غير نهائية، وهي كل ما يصل إليه العلم البشري!

«هذا بالقياس إلى الحقائق العلمية.. والأمر أوضح بالقياس إلى النظريات والفروض التي تسمى علمية. ومن هذه النظريات والفروض كل النظريات

الفلكية؛ وكل النظريات الخاصَّة بنشأة الإنسان وأطوارها؛ وكل النظريات الخاصة بنفس الإنسان وسلوكه.. وكلُّ النظريات الخاصة بنشأة المجتمعات وأطوارها.. فهذه كلها ليست حقائق علمية حتى بالقياس الإنساني. وإنما هي نظريات وفروض، كلُّ قيمتها أنها تصلح لتفسير أكبر قدر من الظواهر الكونية أو الحيوية أو النفسية أو الاجتماعية، إلى أن يظهر فرض آخر يفسِّر قدراً أكبر من الظواهر، أو يفسِّر تلك الظواهر تفسيراً أدق! ومن ثم فهي قابلة دائماً للتغيير والتعديل والنقص والإضافة؛ بل قابلةٌ لأن تنقلب رأساً على عقب، بظهور أداة كشف جديدة، أو بتفسير جديد لمجموعة الملاحظات القديمة!

«وكلُّ محاولة لتعليق الإشارات القرآنية العامة بما يصل إليه العلم من نظريات متجِّددة متغيِّرة ـ أو حتى بحقائق علمية ليست مُطْلقة كما أسلفنا ـ تحتوي أولاً على خطأ منهجي أساسي. كما أنها تنطوي على معان

ثلاثة؛ كلها لا يليق بجلال القرآن الكريم . .

«**الأول: الهزيمة الداخلية التي تخيَّل لبعض الناس أن العلم هو المهيمن والقرآن تابع**. ومن هنا يحاولون تثبيت القرآن بالعلم. أو الاستدلال له من العلم. على حين أنَّ القرآن كتابٌ كامل في موضوعه، ونهائي في حقائقه. والعلم ما يزال في موضوعه ينقض اليوم ما أثبته بالأمس، كلُّ ما يصل إليه غير نهائي ولا مُطْلق، لأنه مقيَّد بوسط الإنسان وعقله وأدواته، وكلُّها ليس من طبيعتها أن تعطي حقيقة واحدة نهائية مطلقة.

«**والثاني: سوء فهم طبيعة القرآن ووظيفته**. وهي أنه حقيقةٌ نهائية مطلقة تعالجُ بناء الإنسان بناء يتَّفق ـ بقدر ما تسمح طبيعة الإنسان النسبية ـ مع طبيعة هذا الوجود وناموسه الإلهي، حتى لا يَصْطدم الإنسان بالكون من حوله، بل يصادقه ويعرف بعض أسراره، ويستخدم بعض نواميسه في خلافته.

نواميسه التي تكشف له بالنظر والبحث والتجريب والتطبيق، وَفْق ما يهديه إليه عقله الموهوب له ليعمل لا ليتسلّم المعلومات المادية جاهزة!

«والثالث: **التأويل المستمر** ـ مع التمحُّل والتكلف ـ لنصوص القرآن كي نحملها ونلهث بها وراء الفروض والنظريات التي لا تثبت ولا تستقر. وكل يوم يجد فيها جديد.

«وكل أولئك لا يتَّفق وجلال القرآن، كما أنَّه يحتوي على خطأ منهجي كما أسلفنا..

«ولكن هذا لا يعني ألا ننتفع بما يكشفه العلم من نظريات، ومن حقائق، عن الكون والحياة والإنسان في فهم القرآن.. كلا! إنَّ هذا ليس هو الذي عنينا بذلك البيان. ولقد قال الله سبحانه: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾... ومن مقتضى هذه الإشارة أن نظل نتدبَّر كل ما يكشف العلم في الآفاق وفي الأنفس من آيات

الله. وأن نوسِّع بما يكشفه مدى المدلولات القرآنية في تصورنا».

ويقول العقاد[1] رحمه الله:

«إننا مطالبون بأن نفهم القرآن الكريم في عصرنا كما كان يفهمه العرب الذين حضروا الدعوة المحمديَّة، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، لو أنهم ولدوا معنا، وتعلَّموا ما تعلَّمناه، وعرفوا ما عرفناه، واعتبروا بما نعتبر به من حوادث الحاضر وحوادث التاريخ منذ الدعوة المحمديَّة إلى اليوم...

ولكن التفكير العصري شيء، وإقرار النظريات العلمية المتجددة شيء آخر.

«فإننا نستفيد من آراء المفكرين ومن مذاهب العلماء النظريين والتجريبيين، إدراكاً نافعاً لنا في التأمُّل والنظر، دون أن نؤمن بصواب كل رأي، وصدق كل نظرية... ونحن مطالبون بأن نفهم

---

(١) الفلسفة القرآنية: ١٨٠ ـ ١٨٤ بتصرف.

القرآن الكريم، ومطالبون بأن نفكر، وأن نستفيد لأفكارنا من علوم العصر الذي نعيش فيه، ولكننا لا نطالب بأن نعلّق إيمانا بتفسير النظريات العلمية، وهي لا تستقر عصراً واحداً على تفسير غير قابل للنقض، أو للتعديل، والتحوير».

* * *

بعد هذا التمهيد، رأيت أن نتعرَّض لعدد من النقاط، كل واحدة منها تسهم في عملية انتفاعنا بالقرآن الكريم، وهي:

١ ـ مختارات من الأحاديث النبوية الشريفة المتعلِّقة بالقرآن الكريم، تبيِّن فضل دراسته وتلاوته، لتكون حافزاً لنا على التلاوة والتدبر.

٢ ـ تلاوة القرآن الكريم: مقْدارها، وآدابها.

٣ ـ تفسير القرآن الكريم، ومعلومات عن بعض أمَّهات كتب التفسير.

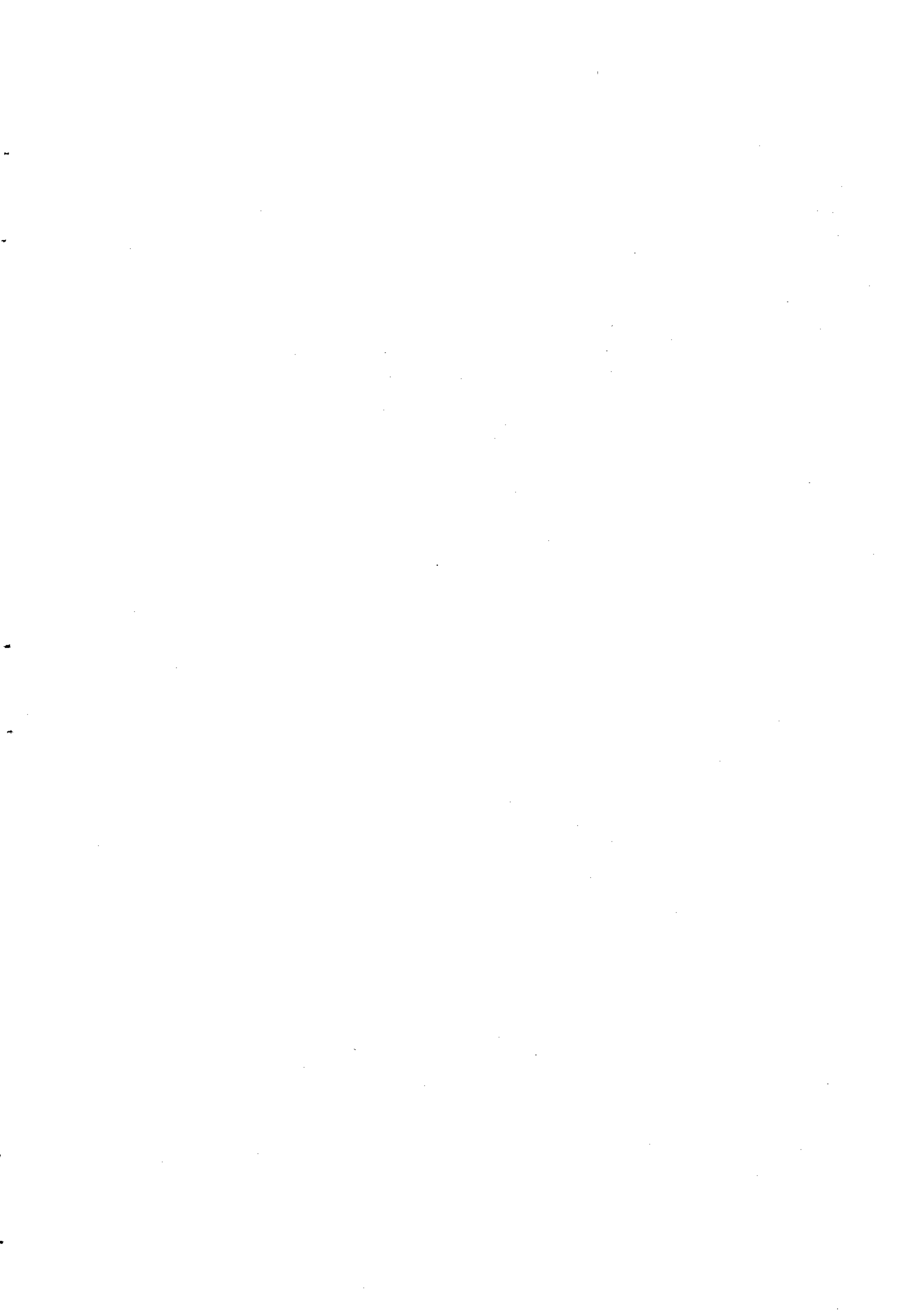
٤ ـ وصايا لقارىء كتب التفسير تُعينه على الانتفاع بها، واجْتناب الأخطاء التي فيها.

٥ ـ أهمية تدبُّر القرآن الكريم، وتأمُّله، والتفكر فيه، وكيفية ذلك.

٦ ـ نموذج على تدبُّر بعض الآيات من سورة مريم.

٧ ـ نماذج من تدبُّر السلف للقرآن الكريم، وأقوالهم فيه.

٨ ـ خاتمة.



أحاديث في

فضل القرآن الكريم

١ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما اجتمع قومٌ في بيتٍ من بيوت الله تبارك وتعالى، يتلون كتابَ اللَّهِ عزَّ وجلّ، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفَّتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده**»[١].

٢ ـ وعنه رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**أيُحِبُّ أحدكم إذا رجع إلى أهله أن يجد ثلاث خَلِفاتٍ عظام سمانٍ؟ قلنا: نعم، قال: فثلاث آياتٍ يقرأ بهنَّ أحدكم في صلاةٍ خيرٌ له من ثلاث خَلِفاتٍ**

(١) أبو داود، وهو جزء من حديث طويل رواه مسلم.

عظام سِمان»[1]. الخَلِفات: جمع خَلِفة، وهي الناقة الحامِل.

٣ ـ وعن عُقبة بن عامر رضي الله عنه قال: «خَرَج رسول الله ﷺ ونحن في الصُّفَّة، فقال: أيُّكم يحبُّ أن يغدوَ كلّ يوم إلى بُطحانَ ـ أو قال: إلى العقيق ـ فيأتيَ منه بناقتين كوماوين في غير إثمٍ ولا قطيعة رحم؟ فقلنا: يا رسول الله نحبُّ ذلك. قال: أفلا يغدو أحدُكم إلى المسجد، فيعلمَ ـ أو يقرأ ـ آيتين من كتاب الله خيرٌ له من ناقتين، وثلاث خير له من ثلاث، وأربعٌ خيرٌ له من أربع، ومن أعدادهنّ من الإبل»[2]. والكَوْماء: الناقةُ العظيمةُ السَّنام، وكوماوان تثنيتها.

٤ ـ وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ حرفاً من كتاب

---

(١) مسلم.
(٢) مسلم.

الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: ﴿ألم﴾ حرفٌ، ولكنْ (ألفٌ) حرفٌ، و(لامٌ) حرفٌ، و(ميمٌ) حرف»[1].

٦ ـ وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **«الماهرُ بالقرآن مع السَّفَرَة الكرام البَرَرَة، والذي يقرأُ القرآنِ وَيَتَتَعْتَعُ فيه، وهو عليه شاقٌّ، له أجران»**[2].

٦ ـ قال عمر رضي الله عنه: أما إنَّ نبيَّكم ﷺ قد قال: **«إنَّ الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً، ويضعُ به آخرين»**[3].

٧ ـ وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: **«خيرُكم من تعلَّم القرآن وعلَّمه»**[4].

---

(١) الترمذي.
(٢) البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود.
(٣) مسلم.
(٤) البخاري، والترمذي، وأبو داود.

٨ ـ وعن أبـي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**تعاهدوا هذا القرآن، فوالذي نفس محمدٍ بيده لَهُـوَ أشدُّ تفلُّتاً مـن الإبـل فـي عُقُلهـا**»[1]. والتعـاهـد والتعهُّـد: المـراجعـة والمعاودة. وزاد مسلمٌ في رواية أخرى: «**وإذا قام صاحب القرآن فقرأه بالليل والنهار ذكره، وإن لم يقُم به نسِيَه**».

٩ ـ وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**بئسما لأحدهم أن يقول: نَسيتُ آية كيتَ وكيتَ، بل هو نُسِّي. . .**»[2].

١٠ ـ وعن أبـي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: اعتكف رسول الله ﷺ في المسجد فسمعهم يجهرون بالقراءة، فكشف السِّتْرَ، وقال: «**ألا إنَّ كلَّكم يناجي ربَّه، فلا يؤذينَّ بعضُكم بعضاً، ولا يرفعْ**

---

(١) البخاري ومسلم.
(٢) البخاري ومسلم والترمذي والنسائي.

بعضُكم على بعض في القراءة، أو قال: في الصَّلاة»[1].

١١ ـ وعن عبد الله بن أبي قُبيس رحمه الله قال: سألت عائشة رضي الله عنها كيف كانت قراءة رسول الله ﷺ بالليل، أكان يُسِرّ بالقراءة أم يَجْهر؟ فقالت: كل ذلك قد كان يفعل. ربما أسرَّ بالقراءة، وربما جهر. فقلت: الحمدُ لله الذي جعل في الأمر سَعَة[2].

١٢ ـ وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «اقرأ عليَّ القرآن»، فقلت: يا رسول الله، أقرأ عليك وعليك أُنزل؟ قال: «إني أحبّ أن أسمعه من غيري». قال: فقرأت عليه سورة النساء، حتى جئتُ إلى هذه الآية: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾[3]،

(١) أبو داود.
(٢) الترمذي.
(٣) سورة النساء، الآية: ٤١.

قـال: «حسبُـك الآن»، فـالتفـتُّ إليـهِ، فـإذا عينـاه تذرِفان[1].

١٣ ـ وعن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يُؤْتى يوم القيامة بالقرآن وأهلـه الذين كانوا يعملون به في الدنيا، تقـدمـه سـورة البقـرة وآل عمـران تحـاجّـان عـن صاحبهما**»[2].

١٤ ـ وعن أبـي أمامة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**اقرءوا القرآن فإنَّه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه**»[3].

١٥ ـ وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب**»[4].

---

(١) البخاري، ومسلم، والترمذي، وأبو داود.
(٢) مسلم.
(٣) مسلم.
(٤) الترمذي.

١٦ ـ وعن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا حَسَدَ إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن، فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار**»[١].

والحَسَدُ هنا بمعنى أن يغبط الناسُ مَنْ هذه صفته، ويرجوا أن يكونوا مثله، وخيراً منه، من غير أن يتمنوا زوال النعمة عنه.

* * *

(١) البخاري ومسلم.

تلاوة القرآن

مقدارها، وآدابها

قال الإمام النووي رحمه الله في كتابه «**الأذكار**»[1]:

اعلم أن تلاوة القرآن هي أفضل الأذكار، **والمطلوب القراءة بالتدبّر**.

وينبغي للمسلم أن يحافظ على تلاوته ليلاً ونهاراً، سفراً وحضراً. وقد كانت للسلف رضي الله عنهم عادات مختلفة في القدر الذي يختمون فيه، فكان جماعة منهم يختمون في كل شهرين ختمة، وآخرون في كل شهر ختمة، وآخرون في كل عشر ليالٍ ختمة، وآخرون في كل ثمان ليال ختمة، وآخرون

---

(١) ص ١٥٣ ـ الطبعة الثانية ـ تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط. بتصرف، واختصار.

في كل سبع ليال ختمة، وهذا فعل الأكثرين من السلف. . .

وذكر ـ رحمه الله ـ من ختم في أقل من ذلك الزمن، ثم قال: وأما الذين ختموا القرآن في ركعة فلا يُحصون لكثرتهم، فمنهم عثمان بن عفان، وتميم الداري، وسعيد بن جبير.

والمختار، أن ذلك يختلف باختلاف الأشخاص. فمن كان يظهر له بدقيق الفكر لطائف ومعارف، فليقتصر على قدرٍ يحصل له به كمال فهم ما يقرأ، وكذا من كان مشغولاً بنشر العلم، أو فصل الحكومات بين المسلمين، أو غير ذلك من مهمّات الدين، والمصالح العامة للمسلمين، فليقتصر على قدرٍ لا يحصل له بسببه إخلال بواجباته، ومن لم يكن من هؤلاء المذكورين فليستكثر ما أمكنه من غير خروج إلى حدّ الملل أو الهذرمة[1] في القراءة.

---

(١) الهذرمة: الإسراع في القراءة من غير تدبر للمعنى.

وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**لا يفقه من قرأ القرآن في أقلَّ من ثلاث**»[1].

ويبدو لي أنَّ المراد: من اتَّخَذَ ذلك عادة، أما من وَجَد في نفسه نشاطاً، وفي وقته فراغاً، فلا بأس بذلك، بل ربما كان حسناً، كأن يكون في إجازة، أو في رمضان المبارك، وهذا جمعاً بين الأدلَّة، والله تعالى أعلم[2].

الأوقات المختارة للقراءة:

قال الإمام النوويُّ رحمه الله: «أفضل القراءة ما كان في الصلاة، ومذهب الإمام الشافعي وآخرين

---

(١) أبو داود، والترمذي، والنسائي، وغيرهم.

(٢) قال الحافظ ابن رجب في «لطائف المعارف» ص ٣١٩: «وإنما وَرَدَ النَّهيُ عن قراءة القرآن في أقلَّ من ثلاث على المداومة على ذلك. فأمَّا في الأوقات المفضَّلة، كشهر رمضان، خصوصاً الليالي التي يطلب فيها ليلة القدر، أو في الأماكن المفضَّلة، كمكَّة شرفها الله، لمن دخلها من غير أهلها، فيستحبُّ له الإكثار فيها من تلاوة القرآن، اغتناماً للزمان والمكان» انتهى.

رحمهم الله: أنَّ تطويل القيام في الصلاة بالقراءة أفضل من تطويل السّجود وغيره. وأما القراءة في غير الصلاة فأفضلها قراءة الليل، والنصف الأخير منه أفضل من الأول، والقراءة بين المغرب والعشاء محبوبة، وأما قراءة النهار فأفضلها ما كان بعد صلاة الصبح. ولا كراهة في القراءة في وقتٍ من الأوقات، ولا في أوقات النهي عن الصلاة. ويُختار من الأيام: الجمعة، والإثنين، والخميس، ويوم عرفة، ومن الأعشار: العشر الأول من ذي الحجة، والعشر الأخير من رمضان، ومن الشهور رمضان».

في آداب الختم:

قال الإمام النووي رحمه الله: «روى ابن أبي داود بإسنادين صحيحين أن أنس بن مالك رضي الله عنه إذا ختم القرآن جمع أهله ودعا. وروي بأسانيد صحيحة عن الحكم بن عتيبة التابعي الجليل الإمام قال: أرسل إليّ مجاهد، وعَبْدَة بن أبي لبابة فقالا: إنا أرسلنا إليك لأنا أردنا أن نختم القرآن، والدعاء

مستجاب عند ختم القرآن. وفي بعض رواياته الصحيحة: أنه كان يقال: إنَّ الرحمة تنزل عند ختم القرآن».

من نام عن حزبه ووظيفته المعتادة:

روى الإمام مسلم رحمه الله في صحيحه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**من نام عن حزبه من الليل، أو عن شيءٍ منه، فقرأه ما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر كتب له كأنما قرأه من الليل**».

آداب ينبغي للقارىء الاعتناء بها:

أوَّل ما يُؤْمر به القارىء الإخلاص في قراءته، وأن يريد بها وجه الله سبحانه وتعالى، وأن يتأدَّب مع القرآن، ويستحضر في ذهنه أنه يناجي الله عزَّ وجلَّ، ويتلو كتابه، فيقرأ على حال من يرى الله، فإن لم يره فإن الله تعالى يراه.

وينبغي له أن ينظِّف فمه بالسِّوَاك أو غيره.

وأن يكون شأنه الخشوع، والتدبُّر، والخضوع. . .

وقد بات جماعة من السلف يتلو الواحد منهم الآية الواحدة ليلةً كاملة، أو معظم ليلةٍ، يتدبرها عند القراءة.

ويُستحب البكاء، والتباكي لمن لا يقدر على البكاء، فإنَّ البكاء عند القراءة صفة العارفين، وشعار عباد الله الصالحين.

قال الله تعالى عن القرآن الكريم: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾[1].

وكان عبد الأعلى التيميُّ رحمه الله يقول: «من أوتي من العلم ما لا يبكيه، لخليقٌ أن لا يكون أوتي علماً ينفعه» لأنَّ الله تعالى وصف العلماء الذين يتلى عليهم القرآن بأنهم يبكون.

---

(١) سورة الإسراء، الآيات: ١٠٥ ـ ١٠٩.

وعن سعد بن أبـي وقاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ابكوا. فإنْ لم تبكوا فتباكوا**»[1].

ورُوي: إنَّ هذا القرآن نَزَل بحَزَن، فإذا قرأتموه فابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا.

وقراءة القرآن في المصحف أفضل من القراءة من حفظه (لأنها تجمع القراءة والنظر)... وهذا ليس على إطلاقه، بل إنْ كان القارىء من حفظه يحصل له من التدبُّر والتفكر وجمع القلب والبصر أكثر مما يحصلُ من المصحف، فالقراءة من الحفظ أفضل، وإن استويا، فمن المصحف أفضل.

وقد جاءتْ آثار بفضيلة رفع الصوت بالقراءة، وآثار بفضيلة الإسرار. قال العلماء: والجمع بينهما أنَّ الإسرار أبعد من الرياء، فهو أفضل في حقّ من يخاف ذلك، فإنْ لم يخف الرياء فالجهرُ أفضل،

---

(١) ابن ماجه.

بشرط أن لا يُؤذي غيره، من مصلّ أو نائم أو غيرهما.

ودليل فضيلة الجهر أنَّ العمل فيه أكبر، ولأنه يتعدَّى نفعه إلى غيره، ولأنه يوقظُ قلبَ القارىء، ويجمع همَّه إلى الفكر، ويصرف سمعه إليه، ولأنَّه يطرد النوم، ويزيد في النشاط... فمتى حضره شيءٌ من هذه النيات فالجهر أفضل.

ويستحبّ تحسين الصوت بالقراءة وتزيينها، ما لم يبالغ في ذلك، فإنْ أفرط حتى زاد حرفاً أو أخفى حرفاً فهو حرام.

وأما القراءة بالألحان... إنْ أفرط فيها فحرام، وإلا فلا، والأحاديث في تحسين الصوت كثيرة، منها:

١ ـ عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**زيِّنوا القرآنَ بأصواتكم**»[١].

---

(١) أبو داود والنسائي.

٢ - وعن أبـي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما أَذِنَ الله لشيءٍ ما أذن لنبـيٍّ أن يتغنَّى بالقرآن»**[١].

قال ابن الأثير[٢]: يعني: ما استمع. يُقال: أَذِنَ إلى الشيء وللشيء، يأذن، أَذْناً: أي: استمع له. والتغنّي: تحزين القراءة وترقيقها.

وقيل: المراد به رفعُ الصوت بها، وقيل: يستغني بالقرآن.

٣ - وعن أبـي لُبابة رضي الله عنه أنَّه سمع رسول الله ﷺ يقول: **«ليس منَّا من لم يتغنَّ بالقرآن»**.

قال الراوي عن أبـي لُبابة: فقلت لابن أبـي مُلَيكة: يا أبا محمد، أرأيتَ إذا لم يكن حَسَنَ الصوت؟ قال: يُحَسِّنُه ما استطاع[٣].

---

(١) البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي.
(٢) جامع الأصول: ٢/٤٥٨.
(٣) أبو داود.

ويُستحبُّ للقارىء إذا ابتدأ من وسط السورة أن يبتدىء من أول الكلام المرتبط بعضُه ببعض، وكذلك إذا وقف يقف على المرتبط، وعند انتهاء الكلام، ولا يتقيَّد في الابتداء ولا في الوقف بالأحزاب، والأعشار، فإنَّ كثيراً منها في وسط الكلام المرتبط، ولا يغترّ الإنسان بكثرة الفاعلين لهذا الذي نهينا عنه، ممن لا يراعي هذه الآداب»[1].

ومن البديهي أنَّ القراءة لا بد أن تكون صحيحة، فلا يخطىء القارىء في الرفع والنصب والجر، أو في مخارج الحروف، **لذا ينبغي له دراسة أهمّ أحكام التجويد من كتاب مبسَّط مختصر، ومن الضروري أن يتمّ ذلك على يد معلّم عارف، فإن لم يجد فليس أمامه إلا الاستعانة بالأشرطة المسجلة لتحصيل ما يمكن تحصيله من هذا الغرض.**

* * *

---

(١) انتهى النقل عن كتاب الأذكار للإمام النووي، بتصرف.

تفسير القرآن الكريم

أنزل الله تعالى القرآن الكريم بلغة العرب، وعلى أساليبهم في الخطاب، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[1]، وقال سبحانه: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾[2]، وقال عزّ من قائل: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[3].

وقد فهم النبيُّ ﷺ القرآن جملة وتفصيلاً، أما الصحابة رضي الله عنهم، فمع أنهم أعظم الناس فهماً لكتاب الله، فقد فهموا القرآن في جملته، أي بالنسبة لظاهره وأحكامه، أما فهمه تفصيلاً بحيث لا تغيب عنهم منه شاردة ولا واردة فلم يكن، بل كانوا

(١) سورة يوسف، الآية: ٢.
(٢) سورة الزمر، الآية: ٢٨.
(٣) سورة فصّلت، الآية: ٣.

يرجعون إلى النبي ﷺ يسألونه في كثير من الأحيان، كما كانوا يتفاوتون في الفهم فيما بينهم رضي الله عنهم.

يقول الدكتور محمد حسين الذهبي[1] رحمه الله تعالى:

«لم يكن الصحابة الكرام رضي الله عنهم في درجة واحدة في فهم معاني القرآن الكريم، بل تفاوتت مراتبهم، وأشكل على بعضهم ما ظهر للآخر، وهذا يرجع إلى تفاوتهم في القوة العقلية، وتفاوتهم في معرفة ما أحاط بنزول القرآن من ظروف وملابسات، كما أنَّهم كانوا لا يتساوون في معرفة لغة العرب، وقد خفيت بعض الكلمات على بعض الصحابة، ولا ضَيْر في هذا فإن اللغة لا يحيط بها إلا معصوم، ولم يدّع أحدٌ أن كل فردٍ من أمة يعرف جميع ألفاظ لغتها».

---

(١) التفسير والمفسرون: ١/ ٣٤ بتصرف.

وأدلة ذلك عديدة، منها ما أخرجه الإمام البخاري رحمه الله في كتاب التفسير[1] في تفسير قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾. قال عدي بن حاتم رضي الله عنه، قلت: يا رسول الله، ما الخيط الأبيض من الخيط الأسود، أهما الخيطان؟ قال له رسول الله ﷺ: «**لا، بل هو سوادُ الليل وبياض النهار**». وكان رجال إذا أرادوا الصومَ ربط أحدهم في رجليه الخيط الأبيض والخيط الأسود، ولا يزال يأكل حتى يتبيّن له رؤيتهما، فأنزل الله بعده: ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾[2]، فعلموا أنما يعني الليل من النهار.

قال مسروق، التابعي الجليل رحمه الله: «جالست

---

(١) فتح الباري: ٨/ ١٨٢، وانظر: جامع الأصول: ٢/ ٢٧ وما بعدها.

(٢) لأنها نزلت أولاً: ﴿**وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود**﴾، ولم ينزل ﴿**من الفجر**﴾. فتح الباري: ٨/ ١٨٣.

أصحاب محمد ﷺ فوجدتهم كالإخاذ - يعني الغدير - فالإخاذ يروي الرجل، والإخاذ يروي الرجلين، والإخاذ يروي العشرة، والإخاذ يروي المائة، والإخاذ لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم»[1]. وهذا يؤيِّد ما قاله العلامة ابن قُتيبة: «إنَّ العرب لا تستوي في المعرفة بجميع ما في القرآن من الغريب والمتشابه، بل إنَّ بعضها يفضل في ذلك على بعض»[2].

إذا علمنا هذا وضح لنا لماذا لا يوجد كتابٌ واحد يحيط بتفسير القرآن الكريم إحاطةً كاملة شاملة! وكيف يكون هذا والقرآن كلام الله، والتفسير جهد بشر؟! لذا لا يستطيع المرءُ أن يجد كتاباً واحداً في التفسير يجيب عن كل أسئلته، أو يغنيه عمَّا سواه، فكتب التفسير المختلفة كالحدائق المختلفة، كل

---

(١) التفسير والمفسرون: ١/٣٦. وأصدرهم: رواهم. يقال: أطعمهم حتى أصدرهم. المعجم الوسيط: ١/٥٠٩.
(٢) المرجع السابق: ١/٣٦.

حديقة فيها من الأزهار، والأشجار والثمار ما يتشابه، ويختلف عما في غيرها. وهي جهود بشرية فيها الخطأ وفيها النقص، نستفيد من الخير الذي فيها، وندعو لأصحابها، ونعرض عن الأخطاء، ونستغفر لأصحابها.

والاقْتصار على تفسيرٍ واحد لا يكفي، ويُستحسن أن يبدأ الراغب في فهم كلام ربِّه عزَّ وجل بتفسير مختصر يُعنى بالدرجة الأولى بشرح المفردات، وبيان معاني الآيات، وأحسن تأليف أعرفه في هذا المجال هو كتاب «صفوة البيان لمعاني القرآن» للشيخ حسنين محمد مخلوف رحمه الله، مفتي الديار المصرية وعضو جماعة كبار العلماء، وقد طبعته وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية الكويتية في مجلد واحد كبير تزيد صفحاته على (٨٠٠) صفحة.

وكتبُ التفسير كثيرةٌ، وأكثرها يصعب على غير المتخصِّص القراءة فيها؛ إما لطولها، أو لصعوبة

عبارتها، أو لعنايتها بالأحكام الفقهية، أو لتوسُّعها في البلاغة والنحو واللغة، أو لتركيزها على الصناعة الحديثية... إلخ.

ومن أشهر كتب التفسير بالمأثور:

١ ـ تفسيرُ الإمام الطبري: المتوفى عام (٣١٠هـ) رحمه الله تعالى. وتقع طبعته الجديدة في (١٢) مجلداً من القطع الكبير.

٢ ـ تفسير البغوي: المتوفى عام (٥١٦هـ) رحمه الله تعالى.

٣ ـ تفسير ابن كثير: المتوفى عام (٧٧٤هـ) رحمه الله تعالى.

ومن أشهر كتب التفسير بالرأي المحمود:

١ ـ تفسير الفخر الرازي: المتوفى عام (٦٠٦هـ) رحمه الله تعالى. واسمه: «مفاتيح الغيب».

٢ ـ تفسير القرطبي: المتوفَّى عام (٦٧١هـ) رحمه الله تعالى. واسمه: «الجامع لأحكام القرآن».

٣ ـ تفسير القاضي البيضاوي: المتوفى حوالي عام (٦٩١هـ) رحمه الله تعالى. واسمه: «أنوار التنزيل وأسرار التأويل».

٤ ـ تفسير النسفي: المتوفى عام (٧٠١هـ) رحمه الله تعالى. واسمه: «مدارك التنزيل وحقائق التأويل».

٥ ـ تفسير الخازن: المتوفى عام (٧٤١هـ) رحمه الله تعالى. واسمه: «لباب التأويل في معاني التنزيل».

٦ ـ تفسير البحر المحيط لأبي حيان: المتوفى عام (٧٤٥هـ) رحمه الله تعالى.

٧ ـ تفسير أبي السعود: المتوفى عام (٩٨٢هـ) رحمه الله تعالى. واسمه: «إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم».

٨ ـ أما في العصر الحديث فلعلَّ أشهر كتب

التفسير فيه تفسير سيد قطب رحمه الله تعالى، المُسَمَّى: «في ظلال القرآن»، ويقع في (٦) مجلدات من القطع الكبير، ويزيد عدد صفحاته على (٤) آلاف صفحة.

ومن أيْسَرَ كتب التفسير تناولاً ـ حسب اطلاعي ـ: «زاد المسير في علم التفسير»، للإمام أبي الفرج بن الجوزي المتوفَّى عام (٥٩٧هـ) رحمه الله، ويقع في (٩) مجلدات من القطع المتوسط. ومن أحسن المعاجم التي أُلِّفت في شرح ألفاظ القرآن الكريم: «المفردات في غريب القرآن»، للراغب الأصفهاني، المتوفى عام (٥٠٢هـ) رحمه الله تعالى.

* * *

وصايـــا
لقارىء كتب التفسير

يقول الدكتور يوسف القرضاوي[1]:

«ولا أنسى هنا أن أهمس في أُذن الداعية، أو طالب الدعوة، الذي يريد أن يطالع كتب التفسير، ويغترف من معينها، بعدة وصايا استفدتها من قراءاتي وتجربتي:

«١ ـ الاهتمام بلباب التفسير، والإعراض عن الحَشْو، والفضول، والاستطراد الذي انتفخت به بطـون بعـض كتـب التفسيـر، مـن الاستغـراق فـي المباحث اللفظية، أو المسائل النحوية، والنكات البـلاغيـة، والتطـويـل فـي المجـادلات الكـلاميّـة،

(١) ثقافة الداعية: ٣٩ وما بعدها بتصرف.

والخلافات الفقهيّة، وغير ذلك من ألوان الثقافات التي شغلت حيِّزاً ضخماً من تلك الكتب حتى حَجَبت قارئها عن إدْراك أسرار كلام الله تعالى، وهو الذي أُلّفت كتب التفسير من أجله.

«ولهذا يجب على الداعية أن يلتفت إلى ما في التفسير من تعقيبات ذوي القلوب الحية، مما قد لا يُعدُّ من (مادة التفسير)، وإن كان يُعدَّ من (روح التفسير).

«مثال ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾، فالمعنى واضح... ولكن لبعض المفسرين من أرباب البصائر هنا لفتات تحرِّك القلوب الهامدة، وتُحيي العزائم الميِّتة، بما فيها من حرارة الصِّدق، وصفاء الإخلاص، من ذلك قول الحسن البصري وقتادة رحمهما الله تعليقاً على الآية: بايعهم ـ والله ـ فأغلى ثمنهم! وقول الحسن أيضاً: أنفُساً هو الذي

خلقها، وأموالاً هو الذي رزقها. وقول شمّر بن عطية: ما من مسلمٍ إلا ولله في عنقه بيعة، وفى بها، أو مات عليها. ثمَّ تلا هذه الآية.

«٢ ـ الإعراض عن الإسرائيليات. . . ففي القرآن غُنيةٌ عن كل ما عداه من الأخبار المتقدِّمة، لأنها لا تكاد تخلو من تبديل، أو زيادة، أو نقصان.

«٣ ـ الحذر من الروايات الموضوعة والضعيفة، فقد كان بعض أئمة التفسير (مثل ابن أبـي حاتم، وابن مردويه، وابن جرير الطبري) يجمعون في تفسيرهم الصحيح، والحَسَن، والضعيف، والمنكر، بل الموضوع أحياناً. وقد كان عُذْرهم في ذكر هذه الروايات أنهم يذكرونها بأسانيدها معتقدين أنَّهم بذلك قد برئوا من عُهدتها بذكر سندها، كما قيل: من أسند لك فقد حمَّلك، أي: حمَّلك البحث عن رواته ومبلغهم من العدالة والضبط. وكان العلماء في عصرهم يقدرون على تتَبُّع الأسانيد ونقدها، ومعرفة

حال رجالها ولهذا لم يكونوا ـ في أغلب الأحيان ـ يعقّبون عليها بتصحيح أو تضعيف، ثم جاء مَنْ بعدهم فنقل عنهم هذه الأقوال والروايات بعد حذف أسانيدها، فظنَّها من ظنَّها من المتأخرين ثابتة وهي غير ثابتة، وهذا ما أوقع كثيراً من المعاصرين في الخطأ.

«٤ ـ الحذر من الأقوال الضعيفة والآراء الفاسدة، وهي أقوالٌ صحيحة بالنسبة إلى قائليها من جهة الرواية، لكنها مردودةٌ من جهة الدراية، وليس هذا بمستغرب ما دامت صادرة عن غير معصوم، فكلُّ بشرٍ يُخطىء ويصيب، وهو معذور في خطئه، بل مأجورٌ أجراً واحداً إذا كان بعد تحرٍّ واجتهاد، واستفراغ للوسع في طلب الصواب. ولقد رأينا شيخ المفسرين، الإمام الطبري رحمه الله، على جلالة قدره ومنزلة كتابه في التفسير، يختار أحياناً تأويلات هي غاية في الضعف، كتفسيره لقوله تعالى: ﴿وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ﴾ بأنّ معناها: قيِّدوهن،

من هَجَر البعير، إذا شدَّه بالهِجار وهو القيد الذي يُقيد به، والمراد: تقييد النساء لإكراههن على ما تمنَّعن عنه! ولذا سمَّى الزمخشري هذا التفسير بتفسير الثقلاء!».

* * *

تدبُّر القرآن الكريم:

التفكّر والتأمل

يقال في اللغة العربية: فكَرَ في الأمر: أعمل عقله فيه، ورتَّب بعض ما يعلم ليصل به إلى مجهول. وفكّرَ في الأمر، مبالغةٌ في فَكَرَ، وهو أشْيَع في الاستعمال من فكَرَ. وفكَّر في المشكلة: أعمل عقله فيها ليتوصَّل إلى حلّها، وتفكَّر مقارب له في المعنى[1].

ويقال: تدبَّر الأمر: ساسه ونظر في عاقبته[2]. وتأمَّل: تلبَّث في الأمر والنظر، وتأمَّل الشيء وفي الشيء: تدبَّره، وأعادَ النَّظر فيه مرةً بعد أخرى ليستيقنه[3]. فهي كلمات بينها ترادفٌ وتقارب،

---

(١) المعجم الوسيط: ٢/ ٦٩٨.
(٢) المرجع السابق: ١/ ٢٦٩.
(٣) المرجع السابق: ١/ ٢٧.

وتداخل في المعاني.

وقد حَضَّ القرآن الكريم على التفكُّر في مواضع كثيرة منها:

﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾[1].

﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ... ﴾[2].

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم... ﴾[3].

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[4].

﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[5].

كما ورد الحثّ على تدبّر القرآن ذاته، والتأمُّل

---

(١) سورة البقرة، الآيتان: ٢١٩، ٢٦٦.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٩١.
(٣) سورة الروم، الآية: ٨.
(٤) سورة النحل، الآية: ٤٤.
(٥) سورة الحشر، الآية: ٢١.

فيه، والتفكُّر في معانيه كمرحلة لازمة قبل العمل به:

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ. . ﴾[1].

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾[2]؟!

* ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[3]؟!

* ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[4].

وقد قرأت كتاباً جيداً ذا صلةٍ بهذا الموضوع عنوانه: **التفكُّر، من المشاهدة إلى الشهود** (دراسة نفسية إسلامية) للدكتور مالك بدري، عالم النفس الإسلامي المشهور، أرى من المفيد أن أقْتبس منه بعض ما هو وثيق الصلة بموضوع **التدبُّر والتفكر**

---

(١) سورة النساء، الآية: ٨٢.

(٢) سورة محمد، الآية: ٢٤.

(٣) سورة المؤمنون، الآية: ٦٨.

(٤) سورة ص، الآية: ٢٩.

والتأمُّل في القرآن الكريم، مما لا يغني عن قراءة الكتاب قراءة مُسْتأنية، أكثر من مرة، ومحاولة تطبيقه عملياً للانتفاع بما فيه.

يقول المؤلف واصفاً كتابه[1]: «هذا الكتاب دراسة مُبَسَّطة للتفكُّر في خلق السماوات والأرض من منظور نفسي إسلامي، حاولت فيها توضيح قيمة التفكر العبادية، ومناقشته من وجهة نظر علم النفس الحديث، مع تركيز على موضوع الدراسات المعرفية، والتفكير، **والتأمل الارتقائي**... واقترحت تصوراً نفسياً إسلامياً لمراحل التفكر من **المشاهدة** إلى **الشهود**، أي: ابتداءً من مرحلة الإدراك الحسّي، وانتهاءً بمنزلة المراقبة، والبصيرة الثاقبة، وهي المنزلة التي يسمِّيها ابن تيمية ـ رحمه الله ـ بالشهود الصحيح، ويصف الذين يصلون إليها بأن (قلوبهم ليس فيها سوى محبة الله، وإرادته، وعبادته...

---

(١) ص ١٩.

يشهدون المخلوقات: قائمة بأمره، مدبَّرة بمشيئته، بل مستجيبة له، قانتة له)[1].

«إن ما يفكِّر فيه الإنسان هو الذي يؤثر على معتقداته وسلوكه؛ فإذا كان تفكيره في صنع الله ونعمه كان ذلك سبباً في زيادة إيمانه، والارتقاء بأعماله وسلوكه، وإذا كان تفكيره في ملاذه وشهواته صرفه ذلك عن دينه وانحطَّ سلوكه، وإذا كان تفكيره في مخاوفه، وأحاسيسه بالإحباط، والفشل، والتشاؤم كان ذلك سبباً في إصابته بالاكْتئاب، والأمراض النفسية الأخرى. . .»[2].

والذي يهمُّنا ـ في هذا المقام ـ التفكُّر في القرآن الكريم، كلام الله سبحانه، وتدبُّره، وتأمُّله، وإطالة النظر فيه، ومحاولة مزجه: بعقولنا، وقلوبنا، وأرواحنا، من أجل أن يظهر في سلوكنا، وواقع

---

(١) الفتاوى: ١٠/ ٢٢١ ـ ٢٢٥.
(٢) التفكر: ٣٠ ـ ٣١.

خياتنا، فنعيشه، ونعيش به، ونعيش له.

قال ابن قيم الجوزية رحمه الله في كتاب «الفوائد»:

«خلق الله سبحانه وتعالى النفس شبيهةً بالرَّحى الدائرة التي لا تسكن، ولا بدَّ لها من شيءٍ تطحنه، وإن وُضع فيها تراب أو حصى طحنته.

«فالأفكار والخواطر التي تجول في النفس هي بمنزلة الحب الذي يوضع في الرَّحى، ولا تبقى تلك الرحى معطَّلة قط، بل لا بد لها من شيء يوضع فيها. فمن الناس من تطحن رحاه حباً يُخرج دقيقاً ينفع به نفسه وغيره، وأكثرهم يطحن رملاً، وحصًى، وتبناً، ونحو ذلك! فإذا جاء وقت العجن والخبز تبيّن له حقيقة طحينه»!!

وما عبَّر عنه ابن القيم رحمه الله بهذا التصوير الرائع هو محسوس، مشاهد، مجرَّب، عرفناه في أنفسنا، وسمعناه من غيرنا، وتواترت به حكم الشرق

والغـرب، والعـرب والعجـم، والمسلميـن وغيـر المسلمين، وجاء علماء النفس يؤكِّدونه، ولو أنَّهم لم يفعلوا لم يضرُّوا الحقيقة شيئاً، لكنهم فعلوا، فكانت بحوثهم، وتجاربهم، ونتائجها، نوراً على نور.

إنَّ العلماء، أربابَ البصائر المنوَّرة بنور الحق، الذين سلكوا سبل الصِّدق، فربَّوا أنفسهم، وربَّوا غيرهم، كانوا كثيري التأمُّل والتفكُّر في الذكر الحكيم، وكانوا إذا فكروا فيما سواه اهتدوا بهداه، فكان القرآن الكريم مادةً ومَيْداناً لتفكيرهم من ناحية، وهادياً ومرشداً لتفكيرهم من ناحية أخرى، وكانت ثمارُ هذه العملية العميقة المزدوجة الحكمةَ التي فاضت على ألسنتهم من قلوبهم، وطبّقتها جوارحُهم في واقعهم. وهذا ما عبّر عنه الإمام الحسن البصري رحمه الله بجمال وبلاغة وإيجاز حين قال: «إنَّ أهل العلم لم يزالوا يعودون بالذكر على الفكر، والفكر

على الذكر، ويناطقون القلوب، حتى نطقت بالحكمة»[1].

«فإذا داوم المرءُ على التفكُّر أصبح له عادة طيِّبة مباركة، وخشع قلبه، وأصبح كل مثير في بيئته لا يستجيب له إلا بالطيب من الأحاسيس والمشاعر»[2].

«ويرى الدارسون لظاهرة (التأمُّل الارتقائي) أنّ:

١ ـ تركيز الذهن، ٢ ـ مع الترديد لمعنى إيماني، أو لصورة ذهنية لهما قيمة كبيرة لدى الشخص المتفكِّر، سيؤديان به إلى تصوُّر أعمق، ومفاهيم جديدة عن موضوع التفكُّر والتأمل، ويرتقيان به إلىٰ أفق أرفع من المعاني والتصوُّرات التي لم يكن يدركها بسبب الحياة العادية، والألفة، والإدراك الحسي الروتيني المحدود، ومن ثمّ وُصف

---

(١) انظر: مفتاح دار السعادة ـ ابن قيم الجوزية: ١٨٠.
(٢) التفكر ـ مالك بدري: ٣٩ ـ ٤٠.

ذلك التأمل بالارتقائي، لأنَّ صاحبه يرتقي من أفق إلى أفق أعلى منه»[1].

هل هناك أعلى وأغلى، وأروع من القرآن الكريم مادة للتفكُّر والتأمُّل والتدبُّر (وتركيز الذهن)؟ والتكرار؟ أليس في الأحاديث النبوية الشريفة الكثيرة الواردة في الذكر أذكار: بعضها يكرر ثلاث مرات، وبعضها سبعاً، وبعضها عشراً، وبعضها ثلاثاً وثلاثين، وبعضها مئة مرة، وبعضها كلَّما أكثر منها صاحبها كان أكثر أجراً؟ وسيمرّ بنا عند الحديث عن بعض صور تدبُّر السّلف للقرآن الكريم أنهم كانوا يكررون الآية الواحدة، أو شطر الآية مراتٍ عديدة، وأنهم كانوا ينفقون في السورة الواحدة، أو جزءٍ منها عدة ساعات. هذا ـ إذن ـ التأصيل الشرعي لفكرة التكرار بوصفه معيناً على التفكر والتدبر.

---

(١) المرجع السابق: ٥٤ بتصرف.

يقول د. مالك بدري[1]:

«ومن الإرشادات المهمة التي يجب على المتأمل اتِّباعها: إهمال الأفكار والخواطر التي لا تفتأ (تحشر نفسها) في ذهنه لتمنعه من التركيز فيما يتأمل، وعليه أن يعود لتركيز ذهنه مرةً أخرى فيما اختاره موضوعاً لتفكُّره وتأمله. ويكون مُسْترخياً في جلسته. ومع مرور الأيام يتدرَّب على هذا، فيزداد تفكره عمقاً... وقد وجد كثير من الباحثين أنَّ الذي يقوم بهذا التأمُّل مرتين في اليوم، صباحاً ومساءً، لمدة عشرين دقيقة في كل مرَّة، تتحسن صحته النفسية والجسمية، ويصبح أكثر تفاؤلاً، وقدرةً على الإنتاج، والإبداع».

أقول: قال هذا غيرُ المسلمين، ولم يجعلوا موضوع تفكرهم آية من كتاب الله، أو شيئاً من الأذكار المأثورة عن رسول الله ﷺ. فشتان بين

---

(١) التفكر: ٥٤ بتصرف.

موضوعي التفكُّر، شتان بين كلام الله وكلام البشر، وبين التسبيح، والتهليل، والتحميد، والتكبير، والاستغفار، والصَّلاة على النبي ﷺ وبين غيرها!!

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله[1]: «إنَّ المؤمن المتفكِّر الذاكر يُفتح له باب الأُنس بالخلوة، والوحدة في الأماكن الخالية التي تهدأ فيها الأصوات والحركات فإنها تجمع عليه قوى قلبه وإرادته (يعني: تعينه على التركيز)، وتسد عليه الأبواب التي تفرِّق همَّه (يعني: التي تُشتت ذهنه)، ثم يُفتح له باب حلاوة العبادة بحيث لا يكاد يشبع منها، ويجد فيها من اللذة والراحة أضعاف ما كان يجده في لذة اللهو واللعب، ونَيْل الشَّهوات، فإذا استولى عليه هذا (الحال) غطى كثيراً من هموم الدنيا، فهو في وجود، والناس في وجود آخر... لذا قال الحسن البصري رحمه الله تعالى: «تفكُّر ساعة خيرٌ من قيام ليلة».

(١) تهذيب مدارج السالكين: ٣١ ـ ٣٢، بتصرف.

ومما يعين على التدبُّر اختيار المكان المناسب، كالمسجد، أو ركن هادىء لا يقطع عليه فيه خلوته مع القرآن، زيارةٌ، أو حديث، أو رنين هاتف، واختيار وقتٍ يكون فيه الجسم مرتاحاً، والذهن صافياً.

«وتفريغ النفس من شواغلها، وقضاء حاجاتها، وتلبية طلباتها قبل الإقبال على القراءة معين كبير على التدبُّر، ذلك لأنَّ الحاجاتِ تبقى تلحُّ على النفس وتخايل لها، وبذلك تحجب القلب عن التدبُّر والوعي والتلقي. . فلا يكون قارىء القرآن ـ في أثناء قراءته ـ جائعاً، أو عطشاً، أو مهموماً قلقاً مضطرباً، أو يعيش في برد شديد، أو حر مُؤْذٍ، أو جالساً في مكان عام ينظر فيه للغادين والرائحين وينشغل بهم، أو جالساً أمام التلفاز عينه في القرآن وأذنه تسمع التلفاز، أو منتظراً تقديم الطعام ونفسه وأحاسيسه مشغولة باستقباله»(١).

---

(١) مفاتيح للتعامل مع القرآن ـ د. صلاح الخالدي: ٤٨، بتصرف.

ومن **علامات التدبُّر**: «التأثُّر والانفعال بالآيات حسب موضوعاتها وسياقها، فتجد القارىء يفرح إذا قرأ آيات التبشير والرجاء والأمل، ويحزن ويبكي عند آيات الإنذار والتهديد والوعيد، ويُسَرُّ إذا قرأ آيات النعيم، ويخافُ عند آيات العذاب، ويعرض نفسه على آيات صفات المؤمنين ليستكمل الناقص، وعلى آيات صفات الكافرين والمنافقين ليتخلَّى عما علق به منها، ويفتح حواسه على الأوامر والتكاليف الربانية ليعمل بها، وعلى المنهيات والمحرمات ليبتعد عنها.

«وإذا قرأ آية نعيم سأل الله أن يكون من أهله، وإذا قرأ آية عذاب تعوَّذ بالله منه، ويجيب على استفهامات القرآن وأسئلته، وينفذ الأوامر والتكاليف، ويتبرأ من الكفار وصفاتهم، ويُقبل على المؤمنين ويوثق ولاءه لهم، وهكذا..»[1].

---

(١) مفاتيح للتعامل مع القرآن: ٥٠.

قال الإمام الغزالي رحمه الله[1] عند حديثه عن أعمال الباطن في تلاوة القرآن ما معناه:

ينبغي لقارىء القرآن أن يتأثر قلبه بآثار مختلفة بحسب اختلاف الآيات، فيكون له بحسب كل فهم حالٌ يتَّصف به قلبه، من الحزن، أو الخوف، أو الرجاء، أو غير ذلك. وتأثُّر العبد بالتلاوة أن يصير بصفة الآية المتلوة: فعند الوعيد وتقييد المغفرة بالشروط، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾[2] يتضاءل من خيفته كأنه يكاد يموت.

وعند التوسُّع ووعد المغفرة يَسْتَبْشر كأنَّه يطير من الفرح.

وعند ذكر الله تعالى وأسمائه وصفاته يتطأطأ خضوعاً لجلاله، واستشعاراً لعظمته.

---

(١) الإحياء: ١/ ٢٨٥، بتصرف.

(٢) سورة طه، الآية: ٨٢.

وعند ذكر الكفار ما يستحيل على الله عز وجل، كاتِّخاذ الزوجة والولد، يغضُّ صوته حياءً من قبح مقالتهم.

وعند وصف الجنة ينبعث بباطنه شوقاً إليها.

وعند وصف النار ترتعد فرائصه خوفاً منها.

فمثل هذه الأحوال يخرجه أن يكون ناقلاً في كلامه وحاكياً، فإذا قرأ: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾[1]، ولم يكن خائفاً كان حاكياً. وإذا قال: ﴿رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾[2]، ولم يكن حاله التوكل والإنابة كان حاكياً، فإن لم يكن بهذه الصفات، ولم يتردَّد قلبه بين هذه الحالات كان حظه من التلاوة حركة اللسان، وكان داخلاً في معنى قوله عز وجل عن اليهود: ﴿وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾[3]، يعني التلاوة المجردة.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٥.

(٢) سورة الممتحنة، الآية: ٤.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٧٨.

ومثال العاصي إذا قرأ القرآن وكرَّره مثال من يكرِّر كتاب الملك في كل يوم مرات، وقد كتب إليه في عمارة مملكته، وهو مشغولٌ بتخريبها، ومقْتصر على دراسة كتابه، فلعلَّه لو ترك الدراسة عند المخالفة لكان أبعد عن استحقاق المقْت: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾[1]!! وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[2]، وإلاَّ فالجهد المبذول في تحريك اللسان بحروف القرآن قليل![3].

«ومن **هذه العلامات**: الشعور بأنَّ القارىء نفسه هو المخاطَبُ بالآيات، وهو الذي وُجِّهَت إليه التكليفات، ثمَّ يعيش هذا الشعور، ويُدرك نتائجه وآثاره على نفسه وكيانه كله.. وبذلك يقف طويلاً

---

(١) سورة الصف، الآية: ٢ ـ ٣.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٢.

(٣) انتهى الاقتباس من كلام الإمام الغزالي.

أمام الآية ويعرف ماذا تطلبه منه وماذا تنهاه عنه. . وتستوقفه آيات التكاليف المبدوءة بـ: ﴿**يا أيها الذين آمنوا**﴾، و﴿**يا أيها الناس**﴾، و﴿**يا أيها الإنسان**﴾، ويفتح لها كل منافذ التلقي والانفعال والاستجابة، لأنَّ ما بعدها إما أمر لتنفيذه، أو نهيٌ عن محظور أو عتاب وتذكير، أو توجيه إلى خير وهدى. . .»[1].

قال الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله[2] عند حديثه عما سمّاه بـ «**التخصيص**» ما معناه:

أن يُقدِّر قارىء القرآن الكريم أنَّه المقصود بكلِّ خطاب وَرَدَ فيه؛ فإن سمع أمراً أو نهياً قدَّر أنه المنهيُّ والمأمور، وإنْ سمع وعداً أو وعيداً فكمثل ذلك، وإن سمع قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وقَصَص الأوَّلين علم أنها لم ترو للتسلية والسَّمَر، إنَّما للعظة والاعتبار، فما من قصةٍ في

(١) مفاتيح للتعامل مع القرآن: ٥٠ بتصرف.
(٢) الإحياء: ١/ ٢٨٥، بتصرف.

القرآن إلا وسياقها لفائدة في حقّ النبـي ﷺ وأمته، لذلك قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾[1]، فليقدِّر العبد أنَّ الله ثبَّت فؤاده بما يقصُّه عليه من أحوال الأنبياء، وصبرهم على الإيذاء، وثباتهم في الدين انتظاراً لنصر الله. وكيف لا يقدِّر هذا والقرآن ما أنزل على رسول الله ﷺ لرسول الله خاصَّة، بل هو: شفاء، وهدى، ورحمة، ونور للعالمين؟ ولذلك أمر الله تعالى الكافة بشكر نعمةِ الكتاب، فقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ﴾[2] وقال عزّ وجل: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ﴾[3].

وإذا قُصد بالخطاب جميع الناس، فقد قُصد الآحاد أيضاً؛ فهذا القارىء الواحد مقصود، فما له ولسائر الناس؟ فليقدّر أنه المقصود.

---

(١) سورة هود، الآية: ١٢٠.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٣١.
(٣) سورة الجاثية، الآية: ٢٠.

قال الله تعالى: ﴿ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾[1]، أي: من بلغه هذا القرآن فإني نذير له[2].

قال محمد بن كعب القرظي: من بلغه القرآن فكأنما كلّمه الله. وإذا قدّر ذلك لم يتَّخذ دراسة القرآن **وحدها** عملاً له، بل يقرؤه ليتأمَّله ويعمل بمقتضاه ولذلك قال بعض العلماء: هذا القرآن رسائل أَتَتْنا من ربِّنا عزَّ وجلّ بأوامره، نتدبرها في **الصَّلوات**، ونقف عليها في **الخلوات**[3] وننفذها في **الطاعات** والسنن المتبعات.

وكان مالك بن دينار يقول: ماذا زرع القرآن في قلوبكم يا أهل القرآن؟ إنَّ القرآن ربيع القلب كما أنَّ الغيث ربيع الأرض.

وقال قتادة: لم يجالس أحدٌ هذا القرآن إلا قام

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٩.
(٢) زاد المسير ـ ابن الجوزي: ٣/ ١٣.
(٣) أي: حينما نخلو بأنفسنا.

بزيادة أو نقصان، فالمؤمنُ يزداد رحمة وشفاءً، والظالم يزداد خساراً: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾[1].

ومما يعين على التدبر: «تلاوة السورة أو الجزء أو المقطع بتأنٍ، وخشوع وانفعال، وأن لا يكون همُّه نهاية السورة أو خاتمة الجزء، ولا غرضه كم صفحة قرأ وكم آية تلا، وكم حسنة جمع، وأن لا تخايل له هذه الأمور حتى لا تتحول إلى حجاب بينه وبين التدبُّر، وحاجز سميك يحجز عنه أنوار القرآن ولطائفه»[2].

ويمكن للقارىء ـ مثلاً ـ أن يخصِّص ربع ساعة أو نصف ساعة للنظر والتأمُّل في آية واحدة، أو مجموعة من الآيات، والأفضل ألا تزيد على صفحة واحدة يكرِّر المرء تلاوتها، ويحاول تركيز ذهنه في معانيها فتكون قراءته عبادة، وتدبُّره عبادة، وينأله من بركة

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٢.
(٢) مفاتيح للتعامل مع القرآن: ٦٠.

القرآن، وفضل الله عليه، بقدر إخلاصه، ومجاهدته لنفسه: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾[1].

ومن الطرق المجرَّبة التي تعين على التأمُّل: أن تُكتب آية، أو شطر آية، بخط كبير، وتوضع في مكانٍ لائق بحيث تقع العين عليها، وكلَّما رآها واضعها، كرَّرها عدَّة مرات مع التركيز على معانيها. ويختار من الآيات الكريمة ما يناسب حاله، فإن كان في حيرة من أمره لا يدري ماذا يفعل، وقد سُدَّت في وجهه السبل ـ مثلاً ـ كتب قوله تعالى:

﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ﴾[2].

وإن كان كثير الغفلة عن ذكر الله تشغله الأمور والصوارف كتب قوله تعالى:

﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾[3].

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٦٩.
(٢) سورة غافر، الآية: ٤٤.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٥٢.

وإن كان في عسرة وشدة مادية أو معنوية كتب قوله تعالى:

﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾[1].

وإن كان مريضاً يرجو الشفاء كتب قوله تعالى:

﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾[2].

وإن كان في قلق واضطراب كتب قوله تعالى:

﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[3]... وهكذا.

هذه طريقة لتدبُّر آية واحدة أو شطر آية، أما تدبُّر مجموعة من الآيات فأحكي للقارىء الكريم تجربة قمت بها.

ذهبت إلى المسجد في يوم من أيام الجمعة قبل

---

(١) سورة الشرح، الآية: ٥.
(٢) سورة الشعراء، الآية ٨٠.
(٣) سورة الرعد، الآية: ٢٨.

حوالي ساعة من الأذان، فتحت المصحف ـ كيفما اتفق ـ فإذا بي أمام سورة مريم. شَرَعتُ في القراءة، فوجدت في الصفحة الأولى من السُّورة حلقةً تامَّةً من قصة نبيِّ الله زكريا عليه الصلاة والسلام تحكيها إحدى عشرة آية.

قلت: في نفسي: لماذا لا أتأمّل في هذه الصفحة إلى أن يحين الأذان؟

بدأتُ أقرأ الآيات على تمهُّل وتدبُّر، أعيد الآية مَثْنى وثُلاث ورُباع، أنهي الصفحة ثم أعود إلى أوَّلها أقرأ أحياناً بحيث أسمع نفسي، وأحياناً أقرأ بعينيّ من غير أن أحرِّك شفتيّ. فهمتُ في هذه المرة معاني جديدة، وثارت في ذهني أسئلة بعضها وجدت جواباً عليه، وبعضها لم أجد عليه جواباً، ذهبت إلى عدد من كتب التفسير أسألها، وكانت النتيجة ما أضعه بين يدي قارىء هذه السطور.

أما الآيات الكريمات فهي[١]:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾
إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ
مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ
شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ
ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ
مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَٰزَكَرِيَّآ
إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا
﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى
عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ
قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ
شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا
تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ
مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾

---

(١) سورة مريم: الآيات/ ١ ـ ١١.

وأما التفكُّر والتأمُّل في المعاني فكانت ثمرته ـ بعد الرجوع إلى بعض كتب التفسير ـ ما يلي:

الآية الأولى:

﴿كٓهيعٓصٓ﴾: تعدَّدت الأقوال في معاني الحروف المقطَّعة في أوائل السور، ولعل من أرجحها قول من قال: هي تنبيهٌ للعرب أنَّ القرآن مؤلَّف من هذه الحروف التي يؤلِّفون منها كلامهم، فما بالهم يعجزون عن أن يأتوا بمثله؟

الآية الثانية:

* لم أفهم معنى قوله تعالى: ﴿ذِكْرُ﴾ إلا بمعرفة إعرابها. فهي خبرُ لمبتدأٍ محذوف، أي: هذا المتلوُّ عليك ذكرُ رحمةِ ربك.

* ذكرُ رحمة الله لعبده زكريا: بلوغُها زكريا عليه السلام، وإصابتها له. يُقال في اللغة العربية: ذكرني معروفُ فلانٍ، أي بلغني.

* قال ﴿عَبْدَهُۥ﴾ فأضافه سبحانه إلى ذاته العليَّة،

وفي هذا من التشريف والتكريم ما فيه.

الآية الثالثة:

* ﴿إِذْ نَادَىٰ﴾: النداء هنا هو الدعاء، فلماذا عبَّر القرآن عن الدعاء بالنداء؟

* ﴿نِدَآءً خَفِيًّا﴾: لماذا أخفاه؟ قيل: بُعداً عن الرياء، وقيل: لئلاَّ يعاديه بنو عمِّه، وهم المشار إليهم بـ «الموالي» في الآية الخامسة، وقيل: لأنه يسأل الولد على الكِبر، فأخفاه حتى لا يهزأ به الناس.

الآية الرابعة:

* ﴿وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾: وَهَنَ: ضَعُفَ. ذكر أنَّ عَظْمَه قد ضَعُف، والعظم أقوى ما في الجسم، وهو عمود البدن، وأصل بنائه، فإذا تداعى الأصل تداعى ما سواه، وإذا ضعُف الأقوى كان ما سواه أضعف.

* ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾: شبَّه الشَّيْبَ بشُواظ النَّار ـ وهو اللهب الذي لا دخان فيه ـ في بياضه

وإنارته. وشبَّه انتشارَه في الشعر باشتعال النار، ثم أسند الاشتعال إلى الرأس، وهو مكان الشعر ومنبته. ولم يقل: رأسي، بل قال: «الرأس» اكتفاءً بعلم الله سبحانه أنه رأسه.

* ﴿ وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾: يقال شقيَ فلانٌ بكذا: إذا تعب بسببه ولم ينل مُراده.

ومعنى الآية: لم أكن بدعائي إيَّاك ـ يا ربي ـ فيما مضى من أيام عمري شقياً. لم أكن أتعب ثم أُخيَّب، لأنك قد عوَّدتني الإجابة كلَّما دعوتك.

* وهذا توسُّلٌ منه عليه الصلاة والسلام بما سَلَفَ من فضل ربِّه عليه، بعد أن مهَّد بذكر ما يَسْتَدعي الرحمة، ويستجلب الرأفة: من كِبَر السنِّ، وضَعْفِ الحال؛ فإنَّه تعالى ـ بعد ما عوَّده الاستجابة دهراً طويلاً ـ لا يكاد يخيِّبه أبداً، لا سيَّما عند اضْطراره، وشدَّة افتقاره.

* وتكراره عليه السلام ـ في آية واحدة قصيرة ـ

كلمة ﴿رَبِّ﴾، فيه مبالغةٌ في التضرُّع، وتحريك للإجابة، فالربُّ هو السيِّد الذي يعلم ما فيه صلاح المربوب. ولذلك قيل: إذا أراد العبد أن يُستجاب دعاؤه، فليدْعُ الله بما يناسب حالَه من أسمائه الحسنى وصفاته العُلاَ.

الآية الخامسةُ:

* ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى﴾ عطفٌ على: ﴿إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾ وفيه مزيدُ شرح لحاله عليه السلام قبل ذكر حاجته، ومزيد لاسْتِجْلاب رحمة الله وفضْله. وضعفُ القوَّة، وكبر السِّنِّ من أسباب خَوْفِ مَنْ يلي أمره في أمَّته بعد موته.

ومواليه: بنو عمِّه، وكانوا أشرار بني إسرائيل، مفردها: مولى.

* ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا﴾ والعاقرُ: التي لا تلد من حين شبابها.

* ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ﴾ يعني: من عندك. لكنَّ

«**لدن**» أخص من «**عند**». أي: أعطني من مَحْض فَضْلك الواسع وقدرتك الباهرة، لا بالأسباب العادية.

* ﴿وَلِيًّا﴾: ولداً صالحاً يتولاني.

الآية السادسة:

* ﴿يَرِثُنِي﴾: من حيث الدينُ، والعلمُ، والنبوَّة، لأنَّ الأنبياء عليهم السلام لا يورِّثون المال.

* ﴿وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾، مِنْ: هنا للتبعيض، إذ لم يكن كل آل يعقوب عليه السلام أنبياء ولا علماء.

* ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾: مرضياً عندك قولاً وفعلاً.

ويُلاحظ أن فعل «اجعل» أخذ مفعولين: الهاء، ورضياً، وجاءت كلمةُ ﴿رَبِّ﴾ متوسطةً بين المفعولين، للمبالغة في الاعتناء بشأن ما يستدعيه الفعل.

الآية السابعة:

* ﴿يَـٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾.

* في تسمية الله سبحانه للغلام تأكيدٌ للوعد، وتشريفٌ له عليه الصلاة والسلام.

وفي تخصيصه بالاسم، إذ لم يُسَمَّ أحدٌ به من قبل، مزيد تشريف.

الآية الثامنة:

* ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ﴾؟!

* أنى: معناها: كيف؟ ومن أين؟ لم يقلها عليه السلام استبْعاداً، إنَّما استعظاماً لقدرةِ الله تعالى، وتعجيباً منها، واعتداداً بنعمة الله تعالى عليه في ذلك، بإظهار أنه محضُ لطفِ الله، مع كون الأمر في نفسه من الأمور المستحيلة في العادة، لا في قدرة الله سبحانه.

* ﴿عِتِيًّا﴾: يُبساً وجساوةً في المفاصل والأعضاء.

الآية التاسعة:

* ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾، أي: الأمر كذلك، تصديقاً من الله سبحانه لعبده زكريا عليه السلام، فيما ذكره من كبر سنه، وعُقم امرأته. ثم يُبتدأ: ﴿قَالَ رَبُّكَ...﴾.

الآية العاشرة:

* ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾، أي: علامةً أعلم بها حمل امرأتي. قال: علامتك أن تُمنع من الكلام فلا تطيقه، وأنت سليم الجوارح، سويُّ الخلق، ما بك خَرَسٌ ولا بكم. وقيل: سوياً يرجع إلى الليالي، أي: مستويات.

* ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ﴾: كان يتكلَّم بالذكر، فإذا أراد أن يكلم الناس انحبس لسانه وعجز عن ذلك.

الآية الحادية عشرة:

* ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ في صبيحة الليلة التي حملت فيها امرأته، خرج من المحراب: أي: من مُصلاَّه، فَأَوْمأ إليهم أن سبِّحوا الله وصلُّوا ﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾.

هذه نتيجة تأمُّل يسير، ومطالعة لبعض كتب التفسير، وسأورد ـ بعد هذا ـ ما جاء في تفسير سيد قطب رحمه الله «في ظلال القرآن» من كلامٍ في تفسير هذه الآيات الكريمات والتعليق عليها، لأنه ـ في نظري ـ من خير من تأمَّل في القرآن العظيم في عصرنا، وترك وراءه عملاً متكاملاً، رحمه الله، وأكرم مَثْواه، ورضيَ عنه وأرضاه.

يقول صاحب الظلال[1]:

«كاف. ها. يا. عين. صاد»..

هذه الأحرف المتقطِّعة التي تبدأ بها بعض السور،

---

(١) ٤/ ٢٣٠١ وما بعدها.

والتي اخترنا في تفسيرها أنها نماذج من الحروف التي يتألَّف منها هذا القرآن. فيجيء نَسَقاً جديداً لا يستطيعه البشر مع أنهم يملكون الحروف ويعرفون الكلمات، ولكنهم يعجزون أن يصوغوا منها مثل ما تصوغه القدرة المُبْدعة لهذا القرآن.

وبعدها تبدأ القصة الأولى. قصة زكريا ويحيى. **والرحمة قوامها. والرحمة تُظَلِّلها.** ومن ثَمَّ يتقدَّمها ذكر الرحمة: ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴾..

تبدأ القصة بمشهد الدعاء. دعاء زكريا لربه في ضراعة وفي خفية:

﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ ﴾..

إنه يناجي ربَّه بعيداً عن عيون الناس، بعيداً عن

أسماعهم. في عزلة يخلص فيها لربه، ويكشف له عمَّا يثقل كاهله، ويكرب صدره، ويناديه في قرب واتصال: ﴿رَبِّ ..﴾ **بلا واسطة حتى ولا حرف النداء.** وإنَّ ربَّه ليسمع ويَرى من غير دعاء ولا نداء، **ولكن المكروب يستريح إلى البثِّ**، ويحتاج إلى الشكوى. والله الرحيم بعباده يعرف ذلك من فطرة البشر، فيستحب لهم أن يدعوه وأن يبثوه ما تضيق به صدورهم. ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ ليريحوا أعصابهم من العبء المرهق، **ولتطمئنَّ قلوبهم إلى أنَّهم قد عهدوا بأعبائهم إلى من هو أقوى وأقدر**؛ وليستشعروا صِلَتَهم بالجناب الذي لا يُضام من يلجأُ إليه، ولا يخيب من يتوكل عليه.

وزكريا يشكو إلى ربِّه وَهْنَ العظم. وحين يَهِنُ العظم يكون الجسم كله قد وهن. فالعظم هو أصْلب ما فيه، وهو قوامه الذي يقوم به ويتجمَّع عليه. ويشكو إليه اشتعال الرأس شيباً. والتعبير المصوِّر يجعل الشيب كأنَّه نار تشتعل، ويجعل الرأس كله

كأنَّما تشمله هذه النار المشتعلة، فلا يبقى في الرأس المشتعل سواد.

وَوَهْنُ العظم واشتعال الرأس شيباً كلاهما كناية عن الشيخوخة وضعفها الذي يعانيه زكريا ويشكوه إلى ربِّه، وهو يعرض عليه حاله ورجاءه..

ثم يعقب عليه بقوله: ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ معترفاً بأن الله قد عوده أن يستجيب إليه إذا دعاه، فلم يَشْقَ مع دعائه لربِّه، وهو في فتوته وقوته. فما أحوجه الآن في هرمه وكبرته أن يستجيب الله له ويتمَّ نعمته عليه.

فإذ صور حاله، وقدم رجاءه، ذكر ما يخشاه، وعرض ما يطلبه.. إنَّه يخشى مَنْ بعده. يخشاهم ألاَّ يقوموا على تراثه بما يرضاه. وتراثه هو دعوته التي يقوم عليها ـ وهو أحد أنبياء بني إسرائيل البارزين ـ وأهله الذين يرعاهم ـ ومنهم مريم التي كان قيِّماً عليها وهي تخدم المحراب الذي يتولاَّه ـ وماله الذي

يُحسن تدبيره وإنفاقه في وجهه. وهو يخشى الموالي من ورائه على هذا التراث كله، ويخشى ألَّا يسيروا فيه سِيرته.. قيل: لأنه يعهدهم غير صالحين للقيام على ذلك التراث..

﴿ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا ﴾.. لم تُعْقِب فلم يكن له من ذُرِّيَّتِهِ مَنْ يملك تربيته وإعداده لوراثته وخلافته ذلك ما يخشاه. فأمَّا ما يطلبه فهو الوليُّ الصالح، الذي يُحسن الوراثة، ويُحسن القيام على تراثه وتراث النبوة من آبائه وأجداده: ﴿ فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ﴾.

ولا ينسى زكريا، النبيُّ الصَّالح، أن يصوِّر أمَلَه في ذلك الوريث الذي يرجوه في كبرته ﴿ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ **لا جباراً ولا غليظاً، ولا متبطراً ولا طموعاً. ولفظة «رضي» تلقي هذه الظلال**. فالرضي الذي يرضى ويُرضي. وينشر ظلال الرِّضى فيما حوله ومن حوله.

ذلك دعاء زكريا لربِّه في ضراعة وخفية. والألفاظ والمعاني والإيقاع الرخي. كلُّها تشارك في تصوير مشهد الدعاء.

ثم ترتسم لحظة الاستجابة في رعاية وعطف ورضى.. فالربُّ ينادي عبده من الملأ الأعلى: ﴿ يَـٰزَكَرِيَّآ ﴾ ويعجل له البشرى: ﴿ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ ﴾ **ويغمره بالعطف فيختار له اسم الغلام الذي** بشرَه به: ﴿ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ ﴾ وهو اسم فذ غير مسبوق: ﴿ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧ ﴾..

إنه فيضُ الكرم الإلهي يُغْدِقُهُ على عبده الذي دعاه في ضَرَاعة، وناجاهُ في خفية، وكشف له عمَّا يخشى، وتوجَّه إليه فيما يرجو. والذي دفعه إلى دعاء ربِّه خوفه الموالي من بعده على تراث العقيدة، وعلى تدبير المال والقيام على الأهل بما يرضي الله. وعلم الله ذلك من نيَّته فأغدق عليه وأرضاه.

وكأنَّما **أفاق زكريا** من غَمْرة الرغبة وحرارة

الرجاء، على هذه الاستجابة القريبة للدعاء. **فإذا هو يُواجه الواقع**.. إنَّه رجلٌ شيخٌ بلغ من الكبر عتياً، وَهَنَ عظمُه، واشتعل شيبه، وامرأته عاقرٌ لم تلد له في فتوته وصباه: فكيف يا ترى سيكون له غلام؟ إنه ليريد أن يطمئن، **ويعرف الوسيلة** التي يرزقه الله بها هذا الغلام: وقال: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾؟

إنَّه يُواجه الواقع، ويُواجه معه وعد الله. وإنه ليثق بالوعد، ولكنه يريد أن يعرف كيف يكون تحقيقه مع ذلك الواقع الذي يواجهه ليطمئن قلبه. وهي حالة نفسيَّةٌ طبيعية؛ في مثل موقف زكريا النبي الصالح. الإنسان! الذي لا يملك أن يغفل الواقع، فيشتاق أن يعرف كيف يغيره الله!

هنا يأتيه الجواب عن سؤاله: أن هذا هيِّنٌ على الله سهل. ويذكره بمثل قريب في نفسه: في خِلْقَتِهِ هو وإيجاده بعد أن لم يكن. وهو مَثَلٌ لكلِّ حي، ولكل

شيء في هذا الوجود:

﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ .

وليس في الخلق هيِّنٌ وصعب على الله. ووسيلة الخلق للصغير والكبير، وللحقير والجليل واحدة: كن. فيكون.

والله هو الذي جعل العاقر لا تلد. وجعل الشيخ الفاني لا ينسل؛ وهو قادرٌ على إصلاح العاقر وإزالة سبب العُقْم، وتجديد قوة الإخصاب في الرجل. وهو أهون في اعتبار الناس من إنشاء الحياة ابتداء. وإنْ كان كل شيء هيِّناً على القدرة: إعادة أو إنشاء.

ومع ذلك فإن لهفة زكريا على الطمأنينة تدفع به أن يطلب آية وعلامة على تحقُّق البشرى فعلاً. فأعطاه الله آيةً تناسب الجوَّ النفسي الذي كان فيه الدعاء وكانت فيه الاستجابة.. ويؤدِّي بها حقَّ الشكر لله الذي وهبه على الكبر غلاماً.. وذلك أن ينقطع عن

دنيا الناس، ويحيا مع الله ثلاث ليال ينطلق لسانه إذا سبَّح ربه، ويحتبس إذا كلَّم الناس، وهو سويٌّ مُعَافى في جوارحه لم يُصب لسانه عِوَجٌ ولا آفة.

﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾.

وكان ذلك:

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾.

ذلك ليعيشوا في مثل الجوِّ الذي يعيش فيه، وليشكروا الله معه على ما أنعم عليه وعليهم من بعده.

* * *

ومن الطرق النافعة في التدبُّر: أن يختار المرءُ شريطاً مُسَجَّلاً لقارىء يحبُّه، ويأنس بتلاوته وصوته، فيه مَقْطَعٌ من سورة، فيقرأ هذا المقطع أولاً منفرداً، فإن كان مع مجموعة من إخوانه، تلاهُ كلُّ واحد منهم تلاوةً مستأنية، ثم قرؤوا تفسيره في كتاب من

كتب التفسير المعتَمَدة، وتدارسوا معاني ما تلوا فيما بينهم، وتساءلوا عمَّا تتضمَّنُه الآيات من إشارات.

وبعد ذلك، يستمعون إلى الشريط المسجَّل، في مكانٍ لا يقاطعهم فيه هاتف، أو زائر. عندئذ سيحسُّون للتلاوة، والتدبُّر، والدراسة، والمدارسة طَعْماً جديداً لم يألفوه، وسيصلون إلى أعماق من معاني الكتاب المجيد، لم يصلوا إليها من قبل.

* * *

نماذج من تدبُّر السلف
للقرآن الكريم وأقوالهم فيه[1]

١ ـ عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ رجلاً بكّاءً، لا يمْلك دمعَهُ إذا قرأ القرآن.

٢ ـ وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: غَلَبَ على عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ البكاء في صلاة الصبح حتى سمعت نحيبه من وراء ثلاثة صفوف.

٣ ـ وعن الحسن رضي الله عنه كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يمرُّ بالآية من وِرْدِهِ بالليل

(١) من ١ حتى ١١ منقول من كتاب: «المدخل إلى الدراسات القرآنية» ـ أبو الحسن الندوي: ١٤ وما بعدها.

فيبكي حتى يسقط، ويبقى في البيت حتى يعاد للمرض[1].

٤ ـ وعن محمد بن سِيرين قال: قالت امرأةُ عثمان رضي الله عنهما حين أطافوا به يريدون قتلَه، إنْ تقتلوه أو تتركوه، فإنَّه كان يُحيي الليل بركعة يجمع فيها القرآن.

وقد قال عثمان رضي الله عنه: إني لأكره أن يأتي عليّ يوم لا أنظر في المصحف. وما مات رضي الله عنه حتى خرق مصحفه من كثرة ما كان يديم النظر فيه.

٥ ـ وعن حمزة قال: بعثتني أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما إلى السوق وافتتحت سورة الطور، فانتهت إلى قوله تعالى: ﴿وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾[2]

---

(١) هذه الروايات منقولة من كتاب: «قيام الليل» ـ لمحمد بن نصر المروزي: ٥٧. (ط. لاهور ١٣٢٠هـ).
(٢) سورة الطور، الآية: ٢٧.

فذهبت إلى السوق ورجعت وهي تكرر: ﴿ وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾.

٦ ـ وأتى تميمُ الداري رضي الله عنه المقام، فاستفتح الجاثية، فلما بلغ: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾[1]، جعل يرددها ويبكي حتى أصبح..

٧ ـ وردّد سعيد بن جبير ـ رحمه الله تعالى ـ وهو يؤمُّهم في رمضان: ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٧٠ إِذِ ٱلْأَغْلَـٰلُ فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ وَٱلسَّلَـٰسِلُ يُسْحَبُونَ ۝٧١ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ۝٧٢ ﴾[2] مراراً. وقام ليلةً فقرأ: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ﴾[3] فرددها بضعاً وعشرين مرة.

---

(١) سورة الجاثية، الآية: ٢١.
(٢) سورة غافر، الآيات: ٧٠ ـ ٧٢.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٨١.

٨ ـ وكان مسروق رحمه الله، تلميذ ابن عباس رضي الله عنهما، يقرأ سورة الرعد ما بين صلاة العشاء إلى صلاة الفجر.

٩ ـ وردّد الحسن البصري رحمه الله تعالى ليلةً: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾[١] حتى أصبح.

١٠ ـ وقام الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى ليلةً يردد: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾[٢].

١١ ـ وختم الإمام ابن تيمية رحمه الله تعالى في سجنه الذي امتدّ قرابة (٢٨) شهراً وتوفّي فيه، القرآن الكريم مع أخيه الشيخ زين الدين ثمانين مرة.

١٢ ـ ذكر الحافظ الذهبيُّ[٣] رحمه الله تعالى عن أبي عثمان النَّهدي أنه قال: «تضيّفت[٤] أبا هريرة

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٣٤.
(٢) سورة القمر، الآية: ٤٦.
(٣) سير أعلام النبلاء: ٢/٦٠٩.
(٤) أي: نزلتُ عنده ضيفاً.

رضي الله عنه سبعاً، فكان هو وامرأته وخادمه يعتقبون[1] الليل أثلاثاً، يصلي هذا، ثم يوقظ هذا، ويصلي هذا، ثم يوقظ هذا».

١٣ ـ مما جاء في خطاب سعد بن أبي وقاص إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنهما الذي يبشره فيه بفتح القادسية:

«وأصيب من المسلمين رجال لا يعلمهم إلا الله، كانوا يدوّون بالقرآن إذا جَنَّ عليهم الليل كدويِّ النحل، وهم آسادٌ في النهار لا تشبههم الأسود»[2].

١٤ ـ خطب عبد الله بن الزبير رضي الله عنه يصف للمسلمين في المدينة فتح إفريقيَّة، وكان قد بعثه أميرها ابن أبي السَّرح إلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه، وكان مما قال:

«واستشهد الله جلّ جلاله رجالاً من المسلمين،

---

(١) أي: يتناوبون.

(٢) البداية والنهاية ـ ابن كثير: ٧/ ٤٦ بتصرف.

فبِتْنا وباتوا، وللمسلمين دويٌّ كدويِّ النَّحل، وبات المشركون في ملاهيهم وخمورهم. فلما أصبحنا زحف بعضُنا إلى بعض، فأفرغ الله علينا صبره، وأنزل علينا نصره، ففتحناها من آخر النهار»(١).

١٥ ـ قالت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما: «ما كان أحدٌ من السلف يُغشى عليه، ولا يُصعق عند قراءة القرآن، وإنما يبكون ويقشعرّون، ثم تلين جلودهم وقلوبهم لذكر الله»(٢).

١٦ ـ قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كان القرَّاء أصحاب مجلس عمر ـ رضي الله عنه ـ ومشاورته، كهولاً وشباباً»(٣).

١٧ ـ قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «يا حَمَلَةَ القرآن ـ أو يا حملة العلم ـ: اعملوا به، فإنَّما

---

(١) رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وأفريقية ـ أبو بكر عبد الله بن أبي عبد الله المالكي (ط ١ ـ ١٩٥١م): ١/ ١٦.

(٢) جامع الأصول ـ ابن الأثير: ٢/ ٤٦٧.

(٣) التبيان في آداب حملة القرآن ـ النووي: ١١.

العالم من عَمِلَ بما علم، ووافق علمُه عملَه. . وسيكون أقوامٌ يحملون العلم لا يجاوز تراقيهم، يخالف عملهم علمهم، وتخالف سريرتهم علانيتهم، يجلسون حِلَقاً يباهي بعضهم بعضاً، حتى إنَّ الرجل ليغضب على جليسه أن يجلس إلى غيره ويدعه. . أولئك لا تصعد أعمالهم في مجالسهم تلك إلى الله تعالى. . .»[1].

١٨ ـ قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «ينبغي لحامل القرآن أن يُعرف بليله إذا الناس نائمون، وبنهاره إذا الناس مُفرطون، وبحزنه إذا الناس يفرحون، وببكائه إذا الناس يضحكون، وبصمته إذا الناس يخوضون، وبخشوعه إذا الناس يختالون. .»[2].

١٩ ـ قال الحسن بن علي رضي الله عنهما: «إنّ

---

(١) المرجع السابق: ١٧.
(٢) المرجع السابق: ٢٨.

من كان قبلكم رأوا القرآن رسائل من ربِّهم، فكانوا يتدبَّرونها بالليل، ويتفقَّدونها في النهار. . »[1].

٢٠ ـ قال عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما: «لقد عشنا دهراً طويلاً وأحدنا يُؤْتى الإيمان قبل القرآن، فتنزل السورة على محمد ﷺ فيتعلم حلالها وحرامها وآمرها وزاجرها، وما ينبغي أن يقِف عنده منها، ثم لقد رأيت رجالاً يُؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان، فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب إلى خاتمته، لا يدري ما آمره ولا زاجره، وما ينبغي أن يقف عنده منه، ينثره نثر الدَّقَل[2]».

٢١ ـ قال عثمان بن عفَّان وحُذيفة بن اليمان رضي الله عنهما: «لو طهرت القلوب لم تشبع من قراءة القرآن. . . »[3].

---

(١) المرجع السابق: ٢٨.
(٢) الإحياء: ١/ ٢٧٥. والدَّقَل: أردأ التمر.
(٣) المرجع السابق: ١/ ٢٨٨.

٢٢ ـ قال مجاهد رحمه الله في قوله تعالى: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾[١]. «يعملون به حق العمل»[٢].

٢٣ ـ قال الحسن البصري: «إنَّ هذا القرآن قد قرأه عبيدٌ وصبيان لا علم لهم بتأويله... وما تدبُّر آياته إلا باتباعه، وما هو بحِفظ حروفه وإضاعة حدوده حتى إنَّ أحدهم ليقول: لقد قرأتُ القرآن كلَّه فما أسقطت منه حرفاً، وقد ـ والله ـ أسقطه كلَّه، ما يُرى القرآن له في خلق ولا عمل، حتى إنَّ أحدهم ليقول إني لأقرأ السورة في نَفَس! والله ما هؤلاء بالقرَّاء ولا العلماء ولا الحكماء ولا الوَرَعة، متى كانت القراءة مثل هذا؟... لا كثر الله في الناس مثل هؤلاء..»[٣].

* * *

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢١.
(٢) الزهد لابن المبارك: ٢٧٣.
(٣) الزهد لابن المبارك: ٢٧٤.

خاتمة

لعلّنا ـ بعد قراءة هذه الصفحات ـ نتفق على أنه من المستحسن أن يكون للمسلم مع القرآن الكريم عدة أوراد[1]، أو عدة طرق للتعامل معه، من العسير أن يؤديها كلَّها يومياً، ومن اليسير الجمع بينها، على امتداد أسبوع، أو أسبوعين، أو شهر مثلاً، وإجمالها كما يلي:

١ ـ ورد التلاوة:

فقد عرفنا فضل تلاوة القرآن الكريم، وآدابها، وما يتعلَّق بها... إلخ، ويُسْتَحسن أن يكون ذلك يومياً، وإن قلّ، وهو مَيْسورٌ إن شاء الله.

---

(١) الوِرْدُ: النصيبُ من القرآن أو الذّكر، يُقال: قرأت وردي، والوظيفة من قراءَةٍ ونحو ذلك. المعجم الوسيط: ٢/ ١٠٢٥.

٢ ـ ورد الحفظ والمراجعة:

يَجْمُلُ بالمسلم أن يحدِّد لنفسه مقْداراً يحفظه من القرآن الكريم، وأن يتعهَّد ما يحفظ بالمراجعة حتى لا ينساه. وأرى ـ والأمر في مقدار ما يودُّ المرء أن يحفظه يعتمد على: ظروفه، وهمَّته، وعمره ـ أن يختار لذلك آياتٍ مفردات، يحتاج إليها، ومقاطعَ من سُورٍ يشعر أنَّها تشدُّه، وينشرحُ لتلاوتها صدْرُه، وسوراً كاملة، أو أجزاءً.. إلخ، فيحفظها، ثم يتعهدها بالمراجعة حتى لا تُنسى.

٣ ـ ورد الاستماع:

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[1]. وقد سنّ النبيُّ عليه الصلاة والسلام سنة الاستماع بقوله: «إني أحبّ أن أسمعه من غيري»، وفَعَلَه كما مرَّ معنا. واقتدى به الصحابة رضي الله عنهم. وقد كان عمر رضي الله

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٤.

عنه إذا رأى أبا موسى الأشعري رضي الله عنه قال: ذكرنا ربَّنا يا أبا موسى، فيقرأ عنده[1].

والاستماع في عصرنا متيسِّرٌ ـ بفضل الله ـ عن طريق الأشرطة المسجَّلة، ويستحسن أن ينتقي المرء للقرّاء الذين يحبُّهم، ويأْنس بصوتهم، وينشرح قلبه لتلاوتهم. ويمكن الاستفادة من الوقت الذي ينفق في أثناء قيادة السيارة للاستماع.

٤ ـ ورد الدراسة:

وهو أن يدرس معاني ما يحفظ أولاً، ويسعى لأن يقرأ قراءة واعية ـ مرةً في الأسبوع مثلاً ـ في كتاب تفسير يختاره، لأنَّ القصد من التلاوة أن تكون مع الفهم. وقد يحتاج أن يدرس بعض الموضوعات في القرآن الكريم (كالخوف، والرجاء، والتوبة، والجهاد، والإيمان، والنفاق، والهدى، والضلال...) فيجمع الآيات الواردة في هذا

---

(١) فضائل القرآن ـ ابن كثير: ٢٤٣.

الموضوع، ويراجع تفسيرها في كتابٍ واحد، أو أكثر، ويفهم بعضها في ضوء بعض، وهذه من أهمِّ وأحسن الطرق في دراسة القرآن الكريم.

٥ ـ ورد المدارسة:

وهو أن يجتمع مع غيره في مكان معيَّن، والمسجد أفضل الأمكنة، لتدارس القرآن الكريم، فَيَتْلون مِقْداراً معيَّناً، ثم يقْرؤون تفسير ما تلوه في كتاب تفسير يختارونه، ثم يتساءلون فيما بينهم عن المعاني، ويعلّقون، ويسألون، ويجيبون.

٦ ـ وردِ التدبُّر:

وقد مرَّ بنا الحديث عنه.

هذا ما تيسَّر لي اختياره، وأحببتُ أن أقدِّمه للراغبين في الانتفاع بالقرآن الكريم، وهو جهدٌ بسيطٌ متواضعٌ بالقياس إلى ما قدَّمه العلماء الأعلام، والمفكِّرون الأفذاذ، والمربُّون الأخيار من خَلَف هذه

الأمة وسلفها، رحمهم الله جميعاً وجزاهم عنا أحسن الجزاء.

نسألُ الله سبحانه أن يتقبَّل أعمالنا خالصةً لوجهه الكريم، ويباركَ فيها، ويتجاوزَ عمَّا يشوبها، إنَّه أكرمُ مسئول. والحمدُ لله رب العالمين.

فهـرس